الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي
اللجنة العلمية للقسم

الوادي في: 2022/10/05

مستخرج من اجتماع اللجنة العلمية لقسم اللغة والأدب العربي رقم: 2022/77

في يوم الأربعاء الموافق: 2022/10/05 وفي حدود الساعة: 11:00 صباحا اجتمعت اللجنة العلمية لقسم اللغة والأدب العربي برئاسة السيد: **علي كرباع** رئيس اللجنة العلمية، وذلك لدراسة عناصر جدول الأعمال التي من ضمنها:

- اعتماد مطبوعة بيداغوجية

بعد النظر في تقريري الخبرة (داخلي وخارجي) صادقت اللجنة العلمية على اعتماد مطبوعة الأستاذ (ة): **علي كرباع** الموسومة بـ: **محاضرات في قضايا النص الشعري القديم (3 ليسانس أدب عربي)**

الوادي في:

رئيس اللجنة العلمية

رئيس اللجنة العلمية
لقسم اللغة والأدب العربي
د. علي كرباع

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة حمه لخضر بالوادي

قسم اللغة العربية و آدابها

قضايا النص الشعري القديم

مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة ثالثة ليسانس (ل م د)

تخصص : أدب عربي

إعداد الدكتور

علي كرباع

الموسم الجامعي:

(2021م- 2022م)

فهرس الدروس

الرقم	العنوان	الصفحة
01	النزعة القبلية في الشعر الجاهلي.	02
02	نزعة التمرد في شعر الصعاليك	09
03	أثر الإسلام في الشعر العربي القديم	18
04	الشعر السياسي في العصر القديم	31
05	قضية الصراع بين القديم والجديد	39
06	النص الشعري القديم في ضوء نظرية عمود الشعر	47
07	قصيدة المديح في الشعر العربي القديم	53
08	رثاء المدن والممالك	58
09	المدائح النبوية والمولديات في الشعر المغربي	63
10	شعر المعارضات بين المشرق والمغرب	76
11	شعر الاستغاثة والاستصراخ في الأندلس	81
12	التشكيل في النص الشعري في العصرين المملوكي و العثماني	89
13	السجنيات في النّص الشعري القديم	102
14	الشعر النسائي القديم	111

مقدمـــــــة:

تناولت هذه المطبوعة البيداغوجية مجموعة من الدروس في مقياس قضايا النص الشعري القديم مقدمة لطلبة السنة ثالثة ليسانس تخصص أدب عربي نظام **LMD** السداسي الخامس للموسم الجامعي 2021/ 2022 .إذ تتبّعنا البرنامج الوزاري المقرّر، من خلال عرض أهم القضايا التي عرفها النص الشعري العربي القديم بداية بالعصر الجاهلي ثم الإسلامي وما بعده من عصور نهاية بالعصر العثماني والمملوكي .

ملتزمين في ذلك بالتدرّج الزمني، الذي أعاننا على تحديد تلك القضايا التي جسدها اللغة من ناحية والمعنى من ناحية أخرى في صورة حركة متطوّرة.

وقد كان سعينا في هذه المطبوعة البيداغوجية إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- تكوين نظرة شاملة عن التراث العربي القديم— .
- معرفة أهم القضايا التي تناولها النص الشعري القديم
- تقديم فرة مبسطة على كل قضية بداية بالمفهوم اللغوي والاصطلاحي لها وما تليه من عناصر مهمة تتعلق بها
- تتبع ورصد أهم قضايا النص الشعري القديم جمعا ووصفا وتحليلاونقدا واستنتااجا بغية تمين الطالب من فهم تلك القضايا الشعرية ، وتحديد أهم المعالم النقدية لها وكشف مدى مسايرة الأدب للظروف التي عرفها المجتمع العربي سياسيا ، اقتصاديا ثقافيا ...

لذا كان لزاما الاعتماد على المصادر والمراجع المتنوّعة خاصة القديمة محاولين الإفادة منها من أجل الانفتاح أكثر على تلك القضايا وليدة النص الشعري .

ومن هذا المنطلق جاءت الدروس متسلسلة كالآتي:

وقفنا بداية عند مفهوم النزعة القبلية ونزعة التمرد باعتبارهما من أهم القضيا التي تجسد في العصر الجاهلي ، كما تلته دراسة فاحصة تتناول تأثير الإسلام في الشعر من الناحية الألفاظ والمعاني والتجديد في الأغراض واستعماله كأحد أسلحة الدعوة والدفاع عن الإسلام ، وتطرقنا بعد ذلك لقضايا أخرى وليدة الزمن كالصراعات السياسية من أو الانتقال في الأغراض الشعرية كالزهد والتصوف والمديح والمولديات ،بعدها حاولنا أن نعرّف بأهم القضايا النقدية في المشرق والمغرب كشعر المعارضات والتشكيل في النص الشعري وما يتعلق بالنص المغاربي كالاستصراخ والاستغاثة ورثاء المدن والممالك وفي الأخير نرجو أن نكون قد و فّقنا في عرض المادة المق رّرة، وكذلك في بلوغ ما سعينا إليه من غاية في إعداد هذه المطبوعة البيداغوجية لطلبتنا الأعزاء وجيمع الدارسين والباحثين والله الموفق

المحاضرة الأولى: النزعة القبلية في الشعر الجاهلي.

تعد القبلية بالنسبة للفرد الجاهلي هي الوطن والانتماء وإليها ينتسب فيقال "قبيلة طي, قبيلة مضر, قبيلة معبد".

وأساس الانتماء القبلي هو النسب, فأفراد القبيلة هو عبارة عن جماعة لينتمون لأصل واحد "ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة فالرابط الذي يربط بين أبناء القبيلة, ويجمع شملها, ويوحد بين أفرادها هو الدم أي النسب, والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البار

[21]فرابطة النسب هي أهم ركيزة يقوم عليها النظام القبلي, فعليه يجتمعون وبسببه يتقاتلون ويتأثرون "لذا تحمل النظام القبلي عبئا ثقيلا في الدفاع عن الأفراد, حيث كانت القبيلة نهت بمجموعة النفع يلحق بأفرادها من أذى والثأر لقتيلها, حتى وإن أدى إلى خوض حرب طويلة رغم ذلك لم تكن تسمح لأفرادها بالخروج عن نظامها ومرجعيتها"[1]

فالقبيلة هي عبارة عن إدارة لمجموعة من الأفراد تجمع بينهم رابطة الدم بصفة الى لذلك كان الفرد العربي يهتم بنسبة ويدافع عنه.

ويقول مالك بن نبي "فالرابطة القبلية قد ظلت وحدها الرابطة التي توحد بعض الرجال فيما يشبه وحدة رسالة, غير أن هذه الرابطة لم تكن بكافية لتأهيل شعب ليؤدي رسالة تاريخية, وإن كانت أهلته للقيام برواية حماسية رائعة, لكن التاريخ يقرر أن الشعب الذي لم يقم برسالته, أي بدوره في تلك السلسلة ما عليه إلا أن يخضع ويذل"[2].

[1]برهان الدين دلو, جزيرة العرب قبل الإسلام, دار الفراي, بيروت, ط1, 1989, ص153

[2] مالك بن نبي, شروط النهضة, دار الفكر, بيروت, لبنان, دط, دت, ص

ويذهب إلى خلدن للتوسيع في مفهوم القبيلة إلى "العصبية هي العنزة على ذوي القرى وأهل الأرحام أن يثالهم ضيم أو تصيبهم هلكة, وتكون العصبية بين أهل النسب الواضح ومن مظاهرهم أي تزوج من نساء منهم أو تزوجوا هم من نسائه أو يسبب إلهم بالولاء أو الحليف[3].

مفهوم العصبية:

يعود أصل كلمة العصبية إلى لفظ "العصب" ويعني الشد والطين والتي والعصابة: العمامة وكلما يعصب به الرأس وعصبة الرجل: بنوه وقرابته لأبيه[4] أما العصبة والعصابة فهم جماعة من الناس, وقيل إنهم ما بين العشرة والأربعين وقيل غير محدد بعدد, وإعصوصب القوم معناه أنهم صاروا عصابة[5] قال تعالى "ونحن عصبة" سورة الكهف.

فمن خلال هذه التعاريف يتجلى لنا أن مفهوم العصبة يقوم على الدفاع والنصرة وهمية بين أفراد القبيلة.

اصطلاحا:

جاء في تعريف العصبية عدة تعاريف بغية تحديد هذا المصطلح الفضفاض عرفها الجابري بقوله "رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية معا, تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة ربطا مستمرا, يبرز ويشتد عند ما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة"[6].

فالعصبية عبارة عن هور متطور للروح القبلية, دون أن تصل إلى مرتبة الروح القومية, على أنها عبارة على السلطة السياسية في المجتمعات القبلية.

---

[3] ابن خلدون, المقدمة, تح: عبد الله الدرويش, دار يعرب, دمشق, ط1, 2004, ص256-258.

[4] ينظر: ابن منظور, لسان العرب, دار صادر, بيروت, لبنان, ط6, 2008, ج10, ص166.

[5] الفراهيدي, العين, دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان, ط1, دت, ج3, ص16.

[6] محمد عابد الجابري, فكر ابن خلدون, العصبية والدولة, ص168.

ويحمل كل هذه التعاريف د/خالد بن عبد الرحمان الجريسي بأنها رابطة الدم أو تكاتف, اجتماعي أو تضامن قبلي, فهي تبور في مجملها حول معنيين رئيسيين "الاجتماع, والنصرة", فهما يمثلان صلب العصبية, ومع أن العلماء والكتاب قد ذكروا للعصبية تعريفات متنوعة إلا أنها لا تخرج في مجملها عن هذين المعنيين سواء أكان ذلك الاجتماع والتناظر حقا أم لا"[7].

ونجمل هذا المعنى للعصبية في النقاط التالية:

- أنها شعور قوي بالهوية القبلية, وولاء الفرد لقبيلته والتماسك معهم عند حدوث مشاحنات وصراعات كما أنها تناصر أفراد قبيلة ما واجتماعهم على الباطل غالبا ضدقوم غيرهم.
- أنها شعور التماسك والتضامن بين من تربطهم رابطة الدم, وهي مصدر القوة السياسية والعسكرية الذي يربط بين أفراد القبيلة.
- أنها شعور الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من عصبيته الي تنتمي إليها, بل هي استعداد دائم في نفس الفرد يدفعه إلى تجسيد هذا الانتماء إلى عصبيته بفنائه فيها كليا.
- غريزة الدفاع الكامنة في كل كائن مادي أو معنوي بصرف النظر عن العدالة من عدمها, ما يجعل الفرد يحس بأنه مدين في كل شيء عنده إلى قبيلته فهي التي جمعته وترعرع بين ظهرانيها حتى صار رجلا فكان إلزاما عليه أن يخلص لها ويتفانى في الدفاع عن شرفها[8].

فالعصبية هي ذلك الشعور بالانتماء المطلق للقبيلة فالفرد العربي ابن قبيلته منصهر فيها, يعادي من تعاديه القبيلة ويصاحب ويسالم من تتانمه.

---

[7] خالد بن عبد الرحمان الجريسي والعصبية القبلية في العصر الجاهلي, مؤسسة الجريسي, السعودية, دط, دت, ص26–27.

[8] ينظر: ميمون يوسف, طعام خفيظة, العصبية القبلية في الشعر العربي القديم (مظاهرها في الشعر الجاهلي) مقال بمجلة أنسنة للبحوث والدراسات, ج10, ع2, 2019, ص163–164.

العصبية القبلية في الشعر العربي:

1–الفخر بالأنساب: والنسب يقصد به تلك الرابطة الأساسية التي تجمع بين أفراد القبيلة, ولعل أشهر بيت قول زيد بن الصمة:

وما أنا إلا من غرية إن غوت ** غويت وإن ترشد غربة أرشد[9]

يقول شوقي ضيف "فغية ورشده مرتبطان بعشيرته غربة فإن ضلت ظل معها وأمعن في ضلاله وإن اهتدت اهتدى وأمعن في هذا"[10].

ومن صور الحرص الشديد على النسب والاعتزاز به قول معاوية بن مالك:

إني أمرؤ من عصمة مشهورة ** حشد لهم مجد أشم بليد

ألفوا أباهم يشيد وأعانهم ** كرم وأعمام لهم وجدود

إذ كل حتى نابت بأروجة ** نبت العضاة فماجد وكسيد[11]

فالشاعر يبين انتماء بقومه ورفعتهم بين القبائل لعزهم وقوتهم وهذه المنعة والعزة متوازنة من الأجداد وحفظها الآباء والأعمام إلى أبنائهم فهي الشجرة.

ولعل قصيدة المعلقة لعمرو بن كلثوم لدليل ساطع للتعاظم لفخر أبا هند فلا يعجل علينا وأنظرنا نخبرك لقيا

بأنا نورد الريات بيضا ** ونصد رهن حجرا قدروين

إلى قوله "إذا بلغ الفطام كنا رضيع ** تحركه الجبابرة ساجدينا

وريثا المجد قد علمت معد ** يطاعن دونه حتى يبينا[12]

[9] الأصمعي, الأصمعيات, دار بيروت, لبنان, ط1, 2002, ص121.

[10] شوقي ضيف, العصر الجاهلي, دار المعارف, مصر, ط2, دت, ص61.

[11] المفضل الضبي, المفضليات, تح: أحمد شاكر وعبد السلام هارون, دار المعارف, القاهرة, ط6, دت, ص255.

2- التحريض والفتن: وهو الشعر الذي يحرض على القتال والحث عليه, وفيه دعوة صريحة للحرب والقتل لكن لا يكون فيه الشاعر أحد أفراد القوم والجنود, كما فعل أوس بن حجر حين قام بتحريض النعمان بن المنذر على بني حنيفة لأن شعر عمرو السحمي قبل المنذر, وأدى هذا التحريض إلى عزو النعمان لهم وقتلهم وسبيهم فقال:

نبئت أن بني سحيم أدخلو ** أبياتهم تامور نفس المنذر[13].

3-الأخذ بالثأر كان المجتمع الجاهلي قائما على الغزو والحروب وهذا ما تخلقه من قتل وسبي, كان الجاهليون يدعون للأخذ بالثأر ممن اعتدى عليهم وإلا بعد ذلك نقيصه وضعفا لذا كان الفرد العربي "يشير في نفسه مشاعر الحقد والكراهية والانتقام فهو يحاول الثأر من الغالب والقاتل متى تهيأت له الظروف وحتى وجد الفرصة سانحة للإنقاض عليه إنقاذ الكرامة [14].

وظاهرة الثأر ظاهرة ارتكزت على معتقد خرافي في شائع في الجاهلية اذا زعموا أن الإنسان, إذا قتل ولم يطالب بثأره خرج من رأسه لطائر ينتمي الهامة, وصاح على قبره استقوني استقوني إلا أن يطلب بثأره:

يقول ذو الأصبع العدواني:

يا عمرو لا تدع تشتمي ومنقصي ** أضربك حتى تقول الهامة القوي

ومن حور الثأر في العصر الجاهلي:

أ– الثأر لأب والجد:

يقول قيس بن خظيم

---

[12] عمرو بن كلثوم الديوان, دار الكتاب العربي, بيروت, لبنان, ط1, 1991, ص75.

[13]ميمون يوسف, طعام حفيظة, العصبية القبلية في الشعر العربي, ص167.

[14] نوري حمودي القيسي, الفرسية في الشعر الجاهلي, مكتبة النهضة بغداد, ط1, 1964, ص113.

ثأرت عديا والخطيم ولم أضع ** وصية أشياخ جعلت إزاءها

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثأر ** لها نفذ لولا الشعاع أضاءها[15]

فالشاعر قد ثأر لأبيه وحده من القتلة, وحتى يشفى غليله ويطفئ النار التي بداخله لكل بالقتلة.

ب– الثأر الأخ:

يقول الزير سالم في الثأر لأخيه كليب من قاتليه

خذ العهد الأكيد علي عمري ** بتركي كل ما حوت الديار

ولست نجالع درعي ويسقي ** إلى أن يخلع الليل النهار[16]

ويقول دريد بن الصمة يرقي إخوته ويخاطبهم أنه سيثأر لهم ولو طال الزهر ودامت الحرب

أبي القتل إلا آل صمة افهم ** أبوا غيره والقدر يجري على القدر

فإما ترينا ما تزال دماؤنا ** لدى واثر يشفى بها آخر الدهر[17]

موقف الإسلام من العصبية القبلية:

بعد مجيء الإسلام ودعوته إلى الأخوة والمحبة ودفع الأخلاق السيئة لتتآلف القلوب ولا يفخر البعض عن البعض نسبة بين الله تعالى أن أصل الناس واحد قال سبحانه "يا أيها الناس إنا خلفناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارف إن أكرمكم عند الله أتقاكم" الحجرات13.

قال صلى الله عليه وسلم "إن أباكم واحد وإن دينكم واحد أبوكم آدم وآدم خلق من تراب"[18].

---

[15] محمد بن قاسم الفاسي, عنوان النفاسة في شرح الحماسة, دار الكتب العلمية, بيروت, ط1, 1971, 16–20.

[16] المهلهل, الديوان, الدار العالمية, دط, ص34.

[17] قيس بن الخظيم الديوان, مكتبة, دار العرونة, القاهرة, ط1, 1962, ص145.

[18] الألباني السلسلة الصحيحة, ج6, ص451.

وبيان أنه لا أفضلية في النسب قال تعالى: "فإذا نفخ في العصور فلا أنساب بينهم يؤمئذ ولا يتساءلون" المؤمنون101.

وقال صلى الله عليه وسلم "لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتاكم"[19] ففي هذا دعوة إلى الأخوة الإيمانية الصادقة بعيدة عن العصبية والكراهية, ولذا ألف عليه السلام بين المهاجرين والأنصار وآخر بينهم لإعطاء صورة سمحة عن الإسلام بدعوة الأخوة ولذا جاءت الأخبار في النهى عن التعصب المذموم ونذكر من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد".

وقال أيضا "ليس منامن دعا إلى عصبية, وليس منا من قاتل على عصبية, وليس منا من مات على عصبية"[20].

ففيه التحذير الشديد من العصبية الجاهلية المقيته التي تفاخر بالبيت للاستعلاء والغطرسة والظلم والجوار, لذا أكد عليه السلام على محاربتها لفسادها في المجتمع وأضعافه, كما أخبر أنها ستبقى "أربع في أمتي من أصل الجاهلية, لا يتركونهن: الفخر لأحيان والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم, والنياحة[21]

يقول خالد بن عبد الرحمان الجريسي "وبما أن العصبية الجاهلية كانت بمثابة الأساس للأعراق القبلية السائدة آنذاك وكارفت في الوقت نفسه من أسباب الفرقة والتقاتل بين الناس لذا ركز الرسول –صلى الله عليه وسلم– عليها وحاربها بكل قوة ودون هوادة وحذر منها وسد منافذها لأنه لا بقاء للكدين

[19]المصدر نفسه, ص313. ومسند أحمد (23885).

[20]خالد بن عبد الرحمان الجريسي العصبية القبلية من منظور إسلامي, ص117.

[21]مسلم, الصحيح, 934.

العالمي ولا بقاء للأمة الواحدة مع هذه العصبيات, ومصادر الشريعة الإسلامية زاخرة بإنكارها وتشنيعها, وما أكثر النصوص في ذلك[22].

[22] خالد بن عبد الرحمان الجريسي, العصبية القبلية من منظور إسلامي, ص43.

المحاضرة الثانية : نزعة التمرد في شعر الصعاليك

ليست ظاهرة التمرد على النظام وليدة زمن دون آخر فقد عرفها العرب في جاهليتهم على يد بعض الصعاليك الذين خلعوا النظام القبلي بوجه من الوجوه وخرجوا على تلك النظم.

فظاهرة التمرد هي ظاهرة اجتماعية في العصر الجاهلي فرضتها طبيعة الحياة، وما خلفته من فوارق طبقية في المجتمع الجاهلي، فقطع المتمردون الصلة بقبائلهم من نواحٍ متعددة: اقتصادية، اجتماعية، سياسية.

مفهوم التمرد:

جاء مفهوم التمرد في لسان العرب وهو: <<المارد؛ العاتي، مرد على الأمر، تمرد مرودا ومرادة، فهو مارد، ومريد، وتمرد: أقبل وعبا،..

واقل ابن الاعرابي: المرد: التطاول بالكبر والمعاصي، ومرد على الشر أي: عتا وطغى[1].

وجاء في القاموس المحيط في معنى <<مرد: مرودا ومرودة، ومرادة فهو مارد ومريد، ومتمرد أقدم وعتا، أو هو أن يبلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف، ومردة ومرداء، ومردة: قطعه ومزق عرضه.. والمارد المرتفع والعاتي>>[2].

ومن خلال هذا المفهوم يتجلى أن التمرد هو الخروج والعتوة والقوة والعصيان.

وأما اصطلاحا: رفض قاطع لتعد لا يطاق إلى يقين مبهم بوجود حق صالح>>[3].

فظاهرة التمرد التي فرضتها الطبيعة الجاهلية على بعض الأفراد، ويمكن أن حددها في:

1-الطبقية الاجتماعية.

2-الجنس والعرق واللون.

---

[1]ابن منظور: لسان العرب، ج14، ص49.

[2]الفيروز أبادي – القاموس المحيط، الهيئة العربية للكتاب دط، دت، ج1، 335.

[3]أليركامي، الانسان المتمرد، تر، نهاد رضا، منشورات عديدات، بيروت، ط3، 1983، ص198.

مفهوم الصعلكة

جاء مفهوم الصعلكة في لسان العرب يتصل معنى (ص ع ل ك) الصعلوك الفقير الذي لا حال له وزاد الأزهري ولا اعتماد، وقد تصعلك الرجل اذا كان كذلك، قال حاتم الطائي:

غنينا زمانا بالتصعلك والغني فكلا سقاناه بكأسهما الدهر

وتصعلكت الإبل، خرجت أوبارها، وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه[4].

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: <<أما معاوية فصعلوك لا مال له[5]>>

فقد ارتبط مفهوم الصلعة بالفقر والحاجة مع التمرد والخروج.

أما في الاصطلاح:

يقول يوسف خليف: <<فمن الواضع أن الصعاليك هنا ليسوا هم أولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم، أو يستجدون الناس ما يسدون به رمقهم، وانما هم أولئك المشاغبون المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة بينما ينعم الحليون المترفون المسالمون بالنوم والراحة والهدوء فالكلمة خرجت من الدائرة اللغوية، دائرة الفقر إلى دائرة أخرى منها دائرة الغزو والإغارة والنهب والسلب[6].

والصعلكة ليست مبنية على النهب أو بدافع الفقر فقط يقول أحمد الحوفي<<ولكن الصعاليك ليسوا فقراء فحسب، فهم يدركون ما بينهم وبين الأغنياء، من فوارق في النعمى والبؤس، فمعظمهم خلاء

---

[4]ابن منظور لسان العرب، ج10، ص456.

[5]مسلم– الصحيح، ج4، ص134.

[6]يوسف خليف، الشعراء الصعاليك، دار المعارف، القاهرة، ط3، دت، ص26–27.

أيديهم ومعجز، .... وسوء حظهم، ثم هم تواقون إلى أن يحيوا حياة أرقى مما يحيون، فإذا لهذا كله يثورون على النظام المالي[7].

فالصعاليك جمعت بينهم الحاجة، فخرجوا على قبائلهم وأنكرهم قومهم: <<إن قصيد هؤلاء كان مثالا قويا لشخصيا هم وسلوكه لا يكتمون منه شيئا، ولا يقصرون في التعبير عنه، فامتازوا بالصرف والصرافة والقوة وظهرت هذه الصفات في فنهم، الذي يعتز بالشخصية الفردية وهو شأن الشعر الغنائي الصحيح، فقد ترددت في أشعارهم جميعا صيحات الفقر والجوع، وهاجت أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشجاء>>[8].

طبقات الصعاليك:

إن المتتبع لظاهرة الصعلكة التي تقوم على النهب والسلب ورفض القيم الاجتماعية فرضتها الحياة القبلية سيجد أنها وليدة مجموعة من الصعاليك اختلفت أصنافهم كما اشتركت فيهم حب التمرد وهذه الطبقات يمكن أن نحددها في:

1-مجموعة الخلعاء والشذاء:

وهم الذين أنكرتهم قبائلهم، وتبرأت منهم وطردتهم من حماها وقطعت ما بينها، وبينهم من ملكة وتحللت بهذا العقد الاجتماعي الذي يربط بينهما وبينهم[9].

فمن خلال هذا التعريف يتجلى لنا بعض الأحكام القبلية وتصرفها مع من يخرج عن نظامها وقانونها ومن هؤلاء: حاجز الأزدي، أبي الطمحان القيني.

2-مجموعة الأغربة:

[7]أحمد الحوفي، الحياة العربية في العصر الجاهلي، مكتبة نهض مصر القاهرة، ج19، ص231.

[8]عمر عروة، حياة العرب الأدبية، دار المدي، وزارة الثقافة، 2008، ص129-130.

[9]احسان سركيس: مدخل إلى الأدب الجاهلي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 1972، ص200.

حدد يوسف خليف هذا الصنف بقوله: <<السود الذين تسرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء، فلم يعترف بهم أباءهم العرب، ولم ينسبوهم إليها لأن دماءهم ليست عربية خالصة، وإنما خالطتها دماء أحشية سوداء لا تصل من درجة نقائها الى درجة الدم العربي مثل قابط شرا والشفري والسليكبن السلكة>>[10].

3-الفقراء المتمردون:

وهم الذين يصعلكوا نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية المختلفة التي تسود المجتمع الجاهلي، ويمثلهم عروة بن الورد، ومن كان يلتف حوله من فقراء العرب، وكذلك تلك المجموعة الكبيرة من صعاليك هديل[11].

فهذه المجموعات الثلاث هي التي تألفت منها مجموعة الصعاليك <<وهي عصابات قطعت ما بينها وبين قبائلها من صلات، وانطلقت الى الصحراء كما تنطلق الذئاب الجائعة لتنشق لنفسها طريقا في الحياة، وقد جمع بينها على اختلاف قبائلها، الفقر، والتشرد، والتمرد، والكفر بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يؤمن بها المجتمع الذي فرضت عليه والايمان بأن الحق للقوة وأن الضعيف ضائع حقه في هذا المجتمع[12].

الأسباب والدوافع لظهور نزعة الصعلكة:

1-الفقر: عانى الشعراء الصعاليك من الفقر حتى غلب على موضوعات شعرهم وصبغها بلون التبرم والشكوى، فلا يخلوا شعرهم من ذكر الاملاق والعسر وضيق اليد، ويذكر عروة ما يعانيه وأصحابه الفقراء من الجوع ويدعوهم للإغارة وتغيير حياتهم بالقوة إذ يقول:

إذ المرء لم يبعث سواما ولم يرح عليه ولم تعطف عليه أقاربه

[10]يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في الشعر الجاهلي 58.

[11]المرجع نفسه، ص، ن.

[12]المرجع نفسه ص، ن.

فالمرق خير للفتى من حياته ومن مولى تدب عقاربه[13]

والحاجة عند الصعاليك هي من دعتهم إلى النهب والإغارة سرا لحاجتهم وعدم تواكلهم وخمولهم رضى حياة قاسية بائسة <<لم يكن الصعاليك سوى فئة من فقراء والقبائل المختلفة عبرت بانسلاخها عن واقعين اثنين لهما دلالة واحدة عبرت أولا عن خروجها عن الانتماء والذي يلزمها الالتصاق بحياة القبلية والانقياد لأوضاعها وأعرافها، وعبرت ثانيا عن حاجة مادية لم تستطع احتمالها في ظل القبيلة>>[14].

2.الخلع: والخلعاء هم مجموعة من الخارجين على تقاليد القبيلة الجاهلية وأعرافها فبذتهم قبائلهم، وهذا ما يصور تقسيم المجتمع الى طبقات:

-الطبقة الأولى: السادة وأبناء السادة.

-الطبقة الثانية: الخلعاء والموالي.

-الطبقة الثالثة: العبيد وهم أدنى الطبقات الاجتماعية.

ومن صور التمرد والخلع فعل الشنفري استنكارا على قومة بني سلامان لها السعيدوة إذ يقول:

حزينا سلامان بن مفرج قرضها لما قدمت أيديهم وأزلت

شفينا بعيد الله بعض غليظا وعوف لدى المعدى أو ان استهلت[15]

يقول حسين عطوان، تأبط شرا والشنفرى، وسليك جمع بينهم الجوع والضياع والتشرد والتمرد والثورة على المجتمع، ومضوا يحققون وجودهم في مجتمع لم يعترف بهم[16].

3-بنية المجتمع:

كما أشرت سابقا إلى النظام الطبقي في المجتمع الجاهلي وما ينتج عليه من تفريق في المكانة والحياة الاجتماعية، فتظهر تلك الفوارق بين أفراد القبيلة.

---

[13]عروة بن الورد، الديوان ص48.

[14]حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية، دار الفرابي، بيروت، 1979، ص209.

[15]الشنفري، الديوان، ص37.

[16]حسين عطوان، الشعراء الصعاليك في العصر الأموي، دار المعارف، هر1970، ص120.

–ان طالقة الشعراء الصعاليك التي ظهرت في العصر السابق للإسلام كانت تلتقي حالة مهمة في حياة العرب، وهي حالة "فقد الإحساس بالعصبية القبلية، ولأن كل قبيلة كانت القوم على ايمان افرادها بوحدة قبيلتهم كونها الكيان الاجتماعي الذي يلتقي عنده هؤلاء الأفراد. فقد الفصل عنها خلعتها منها، أو شد عنها، بينما كان إيمان كل أفراد القبيلة بنقاء جنسها ودعاة لوجود أغربتها"[17].

ويشير إحسان سركيس أن سبب ظهور الصعاليك في العصر السابق للإسلام إلى عدم إدراك قبائلهم وأهاليهم ونفسياتهم الذي أدى إلى نفورهم منهم وخروجهم على طاعة مجتمعهم[18].

ولعلنا نذكر أسبابا أخرى ويجملها في:

1–الفساد الاقتصادي الذي دعا إلى التمييز بين أفراد القبيلة في الحياة.

2–طبيعة الأرض فالحياة في الجزيرة العربية تعرف بقساوتها وقلة أمطارها.

3–التمتع بالحياة التي تشوبها المخاطر.

ولعل هذه الأسباب وغيرها كانت كدوافع لتمرد الصعاليك على المجتمع وقوانينه لما يحتويه من ظلم واضطهاد وطبقية.

–كما تبقى هذه الفئة –أي الصعالية– لها بصمة خاصة في الحياة العربية، فليس كما يتصوره البعض أنها حياة مستقرة رغم ما فيها من طبقة واستعباد ونهب للحقوق.

وقد ساهمت هذه المجموعة مرة أخرى في إثراء الأدب –الشعر– بوجود نظام أو قاموس خاص. بها يحدد غايتهم ودوافعهم للصعلكة ووجود بصمة مستوحاة من نبذ الظلم والاضطهاد والفقر والجوع.

صور التمرد في شعر الصعاليك –الخصاص الجمالية–

[17]المرجع نفسه، ص33.

[18]ضياء غني لفته، البنية السردية في شعر الصعاليك، دار الجامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ص33–34.

إن القصيدة الشعرية التي جاءت على لسان الصعاليك كانت قائمة على معنى محدد أساسه التمرد والسطو والإيثار، فقد تجاوزت بعض القيم كفقدانهم شفقة الأبوة والانتماء، وبذلك تتخطى الصعلكة معاني الاستهجان إلى معان سامية عمدتها البقاء للأقوى.

وسنذكر بعض الصور التي تجسد حس التمرد على الشعراء الصعاليك.

1/التمرد على شكل القصيدة وبنائها:

ظهر تمرد الصعاليك وتخلصهم من المقدمات الطللية لانشغالهم بأوضاعهم الاقتصادية وحياتهم الخاصة. وما يشوبها من فقر وجوع واضطهاد وظلم فليس همهم الشكل العام للقصيدة فقد كانت ثورتهم عامة لامست الأدب أيضا، ومن الأمثلة نذكر تمرد الشنفري في لاميته إذ يقول:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأصيل

فقد خمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرجل[19]

فقد استهل الشاعر هذه اللامية بالشكوى واليأس من بني أهله مستعيضا عنهم بالذئاب والوحوش التي ألفته وألفها، ويرى أن في الأرض متسعا لمن ضاق بكراهية الأهل وسوء معاشرتهم موفور الكرامة سالما من الأذى.

كما نجد أبو خراش يرثي أخاه عمرو بن مرة واخوته اذ يقول:

لعمري لقد رعت أميمة طلعتي وإن ثواني عندها لقليل

تقول أراه بعد عروة لاهيا وذلك رزء لو علمت جليل

لا تحسبي أي تناسيت عهده ولكن صبري يا أميم جميل[20]

2–التمرد الاجتماعي:

[19]علي الحلبي، شرح شعر الشنفري، ص62.

[20]الحسن السكري، شرح أشعار الهذليين، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ص1189.

عاش الشاعر الصعلوك في مجتمع تعسفي يقوم على الظلم والاستعباد، وهذا ما حملهم على السخط عليه وتمردهم على كثير من أعرافه وتقاليده، اجتماعيا واقتصاديا ولذلك يقول عروة بن الورد مبينا صلابة الرابطة بينه وبين رفقائه الصعاليك مقابل التخلي على أهله وقوله:

وسائلة أين الرحيل؟ وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه

مذاهبه أن الفجاج عريضة إذا ضن عنه بالفعال أقاربه[21]

ويقول السليك مبينا تمرده على الحياة الاجتماعية وأعرافها

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني اذا قمت تغشاني ظلال فأسدف[22]

3–التمرد على السلطة:

ظهر التمرد على القوانين والاحكام القبلية لدى الصعاليك في شعرهم لنبذهم تلك الاحكام الجائرة التي تؤمن بالطبقية يقول الشنفري:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى فيها المزخاف القلي منعزل

ولي دونكم: سيد عملس وأرقط زهلول وعرفاء جيأل[23]

وأما بخصوص العصر الأموي فقد ارتبط ظهورهم بظهور الأحزاب السياسية للدولة الأموية، كالعلويين والخوارج، وتكديس المال لدى بعض الحلفاء والأمراء شبه وراثي، نذكر موقف عبد الله بن الحجاج الثعلبي، إذ خرج مع عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك بن مروان، فلما قضى عبد الملك على عمرو لم يستسلم عبد الله ولا استكان، ولا فقد الأمل في الإطاحة بعيد الملك بل ظل يتلمس السبيل إلى الخلاص منه، وإذا هو ينضم إلى نجدة بن عامر الخارجي، ويساهم معه في مقاتلة جيوش عبد الملك ولا

[21]عروة بن الورد، الديوان ص48.

[22]سليك في الديوان، دار العالمية، لبنان ط1، 1993، ص94.

[23]علي: شرح شعر الشنفري، ص64.

ينتصر عليها، بل يتقهقر أمامها، وحينئذ يهرب عبد الله وتضيق الأرض عليه من شدة طلب عبد الملك له، يقول مصورا خوفه وفزعه:

رأيت بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطرود كفة حابل

تؤدي إليه أن كل ثنية تيمها ترمي إليه بقائل[24]

كما تبقى ظاهرة الصعلكة أحد الظواهر التي عرفتها البيئة العربية قبل وبعد الإسلام محاربة للفقر متمردة على النظم والقوانين الفاسدة كما جاءت بصورة جديدة للشعر العربي تشرح حياة الصعاليك وطبيعة تعاملهم مع أهليهم وأقوامهم، بصورة جديدة وبثوب جديد.

[24] المرجع نفسه ص ن

المحاضرة الثالثة :أثر الإسلام في الشعر العربي القديم

لم يكن الإسلام بعيدا عمّا يدور في السّاحة الأدبيّة من شعر وأدب , إ لا أنّ الاشتغال بدعوة النّاس وإرشادهم لهذا الدّين, هو ما أخذ منهم الوقت ليدوّنوا ما جادت به قرائحهم ,وقد مضت الأيّام و بدأت معالم الدّين تتّضح, و بدأ الصّراع بين المسلمين والمشركين ينتقل من السّرية إلى الجهر, ومن الحجّة بالكلمة الطيّبة إلى مقارعة السيُّوف والجهاد, دفاعا ونشرا للدّعوة الإسلاميّة . وفي هذا الوقت بالذّات تَبَيَّنَ للرُّسول صلى الله عليه و سلم أنَّ النِّضال بقوَّة السَّيف لا يكفي لردِّ المشركين, فقد استعان صلى الله عليه وسلم بحسَّان بن ثابت رضي الله عنه, حيث قال له : " أهْجُهم ورُوح القُدُس معك, واسْتَعِنْ بأبي بكر, فإنَّه علاّمة قريش بأنساب العرب " [1]

وقَدْ دعا النَّبيّ صلى الله عليه و سلم حسَّان بن ثابت, وكعبَ بن مالك, وعبد الله بن رواحة, فَحَثَّهم على قَوْل الشّعر, ونُصْرَة الإسلام ، ويقول لأصحابه:" ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أنْ يَنْصُرُوهُ بِأَلْسِنَتِهم "[2].

فالنَّبيُّ صلى الله عليه و سلم يرى في الشِّعر كأنَّه أحد أسلحة الدَّعوة الإسلاميّة,ومدى وَقْعِه في النُّفُوس, وإنَّ العرب في الجاهليَّة والإسلام ليَعْرِفُونَ مَوْقِع الكلمةِ, وإنَّ وَقْعَهَا لأشدّ عليهم مِنْ وَقْع السُّيُوف على الرِّقاب .

وقد قال الفراهيديّ :"إنّ الشِّعر أحبُّ إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم من كثير من الكلام "[3] .

فقد جعل له مكانة عظيمة,فكأنَه صلى الله عليه و سلم ـ يُعَظِّمُه, ويعطيه المكانة اللاّئِقَة به, فقد عرّفه

1- أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية و الإسلام ، تحقيق على محمد البجاوي، دار النهضة مصر للطباعة و النشر ، (د ط) ، 1981 ، ص 35 .

2- محمد كريم الكواز ، البلاغة و النقد ، المصطلح و النشأة و التجديد مؤسسة الإنتشار العربي، لبنان، ط1 ، 2006 ، ص 143

3- سامي مكي العاني ، الإسلام و الشعر ، سلسلة عالم المعرفة رقم 66 ، ص 44 .

تعريفا شاملا حيث قال :"الشِّعْر كلام من كلام العرب, جَزْلُ تتكلَّم به في نواديها, وتَسُلُّ به الضَّغَائن بينها "[4]ورُوي عنه ـ صلى الله عليه و سلم ـ تقسيمه للشِّعْر بقوله:" إنَّمَا الشِّعر كلام مؤلّف, فما وافق الحقَّ منه فهو حسنٌ, و ما لم يوافِق الحقَّ منه فلا خير فيه ",وقال أيضا :" إنَّما الشّعر كلام ، فمِن الكلام خبيث وطيّب" (5)

فمِنَ خلال الحديثَيْن السَّابقيْن يمكن القول أنَّ النَّبيَّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ قد ربط بين الشِّعر الذي يوافق الحقّ وهو الكلام الطَيِب, والشِّعر الذي لا يوافق الحقّ وهو الكلام الخبيث، ففيه مقاسا للشّعر الحسن؛ فكل شعر خيره في إتباع الحقُّ ,و شرُّه في مخالفته.

و في هذا المقام يتّضح لنا موقفا إسلاميًّا من الشّعر،ونُعَرّج فيه عن قضيّة فلسفيّة، ألا وهي الفنّ وعلاقته بالأدب "والفنّ من أجل قضية ما ،هو هدف إنساني يسمو على كلّ المواضيع الأخرى .... وتوظيفه في خدمة إنسانية نبيلة ، وفي المقابل فإنّ الأدب والقضيّة قد يعانيان أحيانا من اللّجوء إلى النّفاق، وتحريف الأفكار والحقائق", وقد أثنى النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم عن الشِّعر خاصَّة في قوله: إنَّ مِن الشِّعر لحكمة,وإنَّ من البيان لسحرا.

"فنلاحظ أنّ موقفه صلى الله عليه و سلَّم ـ مع موقف القرآن الكريم،وقد كان يَتَذَوَّقُ الشِّعْرَ, ويرتاح لسماع الحِكَم فيه, لذلك وجدناه يسمحُ للشُّعراء بإنشادهم الشِّعر له"[6]

فالأدب الإسلاميّ أضفى على الشّعر صبغة ميدانيّة ،"والملفت للنّظر أنّه وصف المضمون بالحكمة، الصّادرة عن تجربة إنسانيّة بانيّة للكيان الإنسانيّ والاجتماعيّ،وليس المضمون العبثي، كما وصف الجانب الفنّي بالسحر، وهو وصف يحمل طبيعة العمل الفني ، وإن كان لتقديم الأدب (الحكمة) له دلالة واضحة في التّصوير الإسلاميّ للحياة والأدب"[7]

4-القرشي ,جمهرة أشعار العرب ، ص 34 .

5-أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل سوريا ، ط5 ،1981 .ج1 , ص 27.

6- واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،لبنان،ط1 , 1994 ، ص:80.

7- شلتاغ عبود ، الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، دار المعرفة ، ط1, 1996 ، ص : 174 .

و من المواقف التي تؤكّد أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يسمع الشِّعر؛ما أنشده كعب بن زهير حين قال :"

أنْبِئْتُ أنَّ رسول الله أَوْعَدَني * و العفو عند رسول الله مأمولُ**

فطلب منه الرَّسول صلى الله عليه و سلم أن يَذْكُر الأنصار فقال :

من سرّه كرم الحياة فلم يَزَلْ * في مَقْنِت من صالحي الأنصار**[8].

و في هذه النقطة تجدر الإشارة إلى أن الدّين لم يكن عدوا للأدب (الفن) كما يظن البعض ،"فالهروب من النفعية وعدم ارتباط الأدب بأي شيء خارجي (الدين ، العلم،المجتمع)، يؤدي إلى عودة الفن إلى برجه العاجِي ، و يجعله يتبنّى الجمالية المحضة, وبهذا يصبح الفن حرا، ووفقا لهذا الموقف " . [9]

فهذا النِّداء الذي أتت به نظرية الخلق التي سعت إلى تحقيق قضيّة الفنّ للفن، وليس من العيب أن يقول الشّاعر ما في جوفه دون الاهتمام بالجانب السّياقي ، يقول القاضي الجرجاني في الوساطة و هو يتناول قضية فساد العقيدة في الشّعر :"فلو كانت الدّيانة عارا على الشعر، وكان شعر الإعتقاء سببا لتأخُّر الشّاعر لوجب أن يُمحى اسم أبي نواس من الدّواوين، ويحذف ذكره إذا عُدَّت الطَّبقات ،ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهليَّة ومن تشهد الأمَّة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير ، وابن الزَّبعري وأظرابهما ممن تناول الرّسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا و بكاء مفْحمين، ولكن الأمرين متباينان, والدّين، بمعزل عن الشعر") [10].

فالنّبيّ صلى الله عليه و سلم عند سماعه اعتذار كعب بن زهير، وهو ينشده قصيدته المشهورة ، بانت سعاد ، في حضرته ولم ينكر عنه، بل أبقى للأدب أدبيته ."وعلى هذا النحو يبدو أن مذهب الفنّ لا علاقة له بالمسألة الأخلاقيّة وارتباطها بالأدب، فالقول بأن الفنّ غايته في ذاته لا محل للحكم عليه أخلاقيا . و من هنا يتضح أن مذهب الفن للفن لا يعارض الأخلاق ، إنما يسعى إلى خلق الجمال في ذاته، وتحرير الفنون من اتخاذها وسيلة للتعبير عن شخصية صاحبها "[11].

8- القرشي، جمهرة أشعار العرب ، ص:32

9- شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب ، دار المنتخب العربي ، ط1 ،1993، ص :66

10-القاضي الجرجاني ، الوساطة بين أبي تمام و خصومه – صححه و شرحه أحمد عارف الزين,مطبعة العرفان ، (دط) 1331 هـ ، ص : 58

11-محمد مندور ، في الأدب و النقد ، نهضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع الفجالة ، مصر، (د ط) (د ت)، ص31

فالإسلام لم يمنع الأدب أدبيته ، وجعل من القول بما يخالف مبادئ الدّين في الشّعر, وإنّما هو بين القول والمعتقد ،" وأنَّ العرب لم تعتنق مبدأ الالتزام بالعقيدة الدّينيّة ، ومبادئ الأخلاق الإسلاميّة في أشعارها،وإنّما عرفوا في حياتهم مبدأ الفصل بين القول والفعل بدليل سماعه لقصيدة حسّان الذي يقول فيها :

و نَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا وأُسْدا ما يُنْهنُهنا اللّقاء

فسكت عنها لأنه كان مدركا أنّ ذلك تقيّد فني ليس غير [12].

فالنّبي – صلى الله عليه و سلم – قد سمع كثيرا من أشعار العرب ، و التي والتي قيلت بحضرته ،"فقد أعطى لشعر أهمية بالغة، باعتباره فنا معرفيا قادرا على تشكيل العقول من خلال قيمته المعرفيّة والفنية الموحيّة "[13]

فنظريّة (الفن للفن) أو الشّعر للشّعر هي الغايّة منه ،" يرى بودلير بأنّ موضوع الشّعر في الشّعر نفسه، وأنّ الشّعر العظيم الذي يستحق اسم الشّعر هو ذلك الذي يكتب بمجرد المتعة في كتابته" [14]

فالإسلام حقيقة أراد أن يجعل من الشِّعر شعرا ناضجا، كما هو مهتم بالجانب الذّاتي للشّاعر، فيكون ذا صلة بما يحيط به، لتقوم هذه الفكرة الفن الأدبي على أساس خصوصيات الفن، للتّعبير عن الوضوح والجمال

فالنَّبِيّ – صلى الله عليه و سلم – قد أعطى للفن فنيته ، والأدب أدبيته بصورة منظمة شريطة أن يكون الفن في موضعه ، قال أحمد أمين :" إذا كان في الإمكان وجود فنّ يخدم المجتمع بأنه الأرقى،ولكن هذا لا يتهيأ إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون في كل زمان"[15].

و كذلك ما رواه السّكري "أنَّ النَّبيَّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ لمِا سمع قول كعب بن زهير:

وجْناء في جرّتَيْها للبصير بها * عتق مُبِين و في الخدّيْن تسهيل**

قال لأصحابه ما جرّتاها ؟ فقال بعضهم العيْنان ، وسكت بعضهم، فقال لهم :هما أُذُناها نسبهما إلى الكرم ." [16].

12–ينظر نجوى صابر، النقد الأخلاقي أصوله و تطبيقاته ، دار العلوم العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ,1990 ، ص 200.

13–ينظر محمد بن مريسي الحارثي ، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى القرن السابع الهجري,(دط)،1989, ص35 .

14–عزيز شكري الماضي ، في نظرية الأدب ، ص 69.

15–بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، دار المريخ للنشر ، الرياض ،(د ط)، 1984 ، ص 32 .

16–سامي العاني، الإسلام والشعر، ص42

بل كان النَّبيّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ يسمع الشِّعر ويكافئُ عنه,وذلك عندما أنشده النّابغة الجعديّ

أَتَيْتُ رسول الله إذ جاء بالهدى * و يتلو كتابا كالمجَرَّة نيّرَا**

بلغنا السَّماء مجدنا و جدودنا * و إنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا**

فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم :"إلى أين يا أبا ليلى ؟ , فقال : إلى الجنَّة يا رسول الله, فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن شاء الله" (17)

و بعد هذيْن البَيْتَيْنِ نجد الرَّسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ يَحْكُم على الشِّعر,وهذا بعد إنشاد بَيْتَيْن أنشدَهما النَّابِغة :

و لاخير في حلم إذا لم تكن له * بوادرٌ تحمي صَفْوَهُ أنْ يكدّرا**

و لا خير في جهل إذا لم يكن له * حِلم إذا ما أوْرَدَ الأمر أصْدَرَا**

فقال النّبيُّ صلى الله عليه و سلم : لا فَضَّ الله فاك. (18)

و النَّبيُّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ كان يَتَمَثَّل بقول طرفة بن العبد إذ يقول :

ستبدي لك الأيَّام ما كنت جاهلا * و يأتيك من الأخبار ما لم تُزَوِّدِ**

و كان إذا أراد الإستشهاد بالشِّعر في موقف ما؛ يطلب مِمَن يَحْضُرُه أن يروي الشّعر الذي يريد, دون أنْ يجريه على لسانه (19)

و إذا اسْتَحْسَنَ شِعْرا أو أُعْجِبَ به قولا وجمالا عقّب بحكم، كما جعل ذلك في شعر أميَّة بن الصَّلت :

الحمد لله ممسانا و مصبحنا * بالخير صبّحنا الله و مسّانا**

ربُّ الحنيفة لم تنفذ خَزائنها * مَمْلوءةً طبّق الآفاق سلطانا**

ألا نَبِيٌّ لنا منَّا فيُخْبِرُنَا * ما بعد غايتنا من رأس محيانا**

فقال الرَّسول صلى الله عليه و سلم ـ : آمن شِعْرُه و كفر قلبُه (20)

17مصطفى عبد الرحمان إبراهيم ، في النقد الأدبي القديم عند العرب ، دار مكة ، للطباعة (د ط) 1998 ، ص 42

18ينظر القرشي,جمهرة أشعار العرب ، ص 38

19ينظر عمر عروة ، دروس في النقد الأدبي القديم ، أشكاله وصوره ومناهجه ، ديوان المطبوعات الجامعية, 2010, ص 50

20ختير عبد ربي ، النقد الأدبي في العصر الإسلامي و الأموي ، دار الغرب للنشر و التوزيع، (د ط) (د ت) ، ص 52

و لم تقتصر سنَّة النَّبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند سماع الشِعر واستحسانه فقط,بل تجاوزت إلى إصلاح ما يمكن إصلاحه، فيُرى النَّبيُّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ يُصْلِحُ قول كعب بن زهير :

إنَّ الرَّسول لنور يُستضاء به *** مُهَنَّد من سيوف الهند مسلول

فيجعله مُهَنَّد من سيوف الله[21]

فإشادة النَّبيُّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ بالشِّعر والسَّماع لحِكَمِه, والإستشهاد بما يوافق الحقَّ, جعلت مكانة الشِّعْر عالية ولِتَرْسِيخِ مبادئ الدِّين فيه .

و كما صحّح كذلك بيت كعب بن مالك :

"..... *** **مقاتلنا عن جذمنا كل فخمة.**

فيجعلها: مقاتلنا عن ديننا[22]

فلقد كان الرَّسُول صلى الله عليه و سلم يسعى لتوجيه الشِّعر الوِجْهَةَ الصّحِيحَة المُلْتَزِمَة, التي لا تُخَالِف الحقَّ والصَّواب, ولا تدع إلى رذيلة أو كفر.

و على هذا الأساس فالإسلام قد رسم لهم منهجا جديدا للشّعر، يُنْظَر إليه في ضَوْءِ الهديِّ الإسلاميِّ, فكلُّ شعر فيه حكمة, أو هدف تربوي أو ذكر للتُّراث أو الدِّفاع عن الدَّعوة أو الحثِّ عن الفضائل والعزَّة و الكرامة لنجد الإسلام قد حَرِص عليه كلَّ الحرص, ودعا له.

ففي هذا الموقف الأوَّل نرى أنِّ النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم لم يكن يقول الشّعر, بل كان يسمعه و يحكم عليه, و يُصوّب خطأه ,ويُصَحِّحُ ما يجبُ تَصْحيحه, ويُغَيِّرُ صورته إلى الأفضل،فكان عليه الصَّلاة والسَّلام يستشهد بأقوال بعضهم, ويرى الفضل للأفضل منهم، كما رُوي عنه أنّه أحبَّ رؤية عنترة العبسيّ؛ لإعجابه بشعره, و لما رأى فيه من الحكمة والانسجام بين أفكار العِزَّة و الإبَاء .

و أعظم من ذلك , المؤقف الذي عبَّر به صلى الله عليه و سلم عن إعجابه بالشِّعر, وبروائعه, وكيف يجري في هذه الأمة إلى حدِّ قوله :" لا تدع العرب الشّعر حتى تدع الإبل الحنين[23]

21ينظر عمر عروة , دروس في النقد الأدبي القديم ، ص 53 .

22ختير عبد ربي,النقد الأدبي في العصر الإسلامي و الأموي ، ص 53

23 محمد كريم الكواز, البلاغة والنقد ، ص 147.

وإنَّه لمن عظيم الشّرف أن يَعْتَرِف النَّبيُّ –صلى الله عليه و سلم –ببقاء هذا الجنس الأدبيّ وهو الشِّعر"فمذهب الفنّ للفنّ لايتعارض مع الأخلاق, وإنّما يسعى إلى خلق الجمال في ذاته,وتحريرا للفنون من اتّخاذها وسيلة للتّعبير عن شخصيّة صاحبها ,فهو لا يناهضها[24]

وهناك موقف آخر للرّسول صلى الله عليه و سلم من الشّعر، وقد ذَكَرَتْه كتب النَّقد معتبرِين ذلك حكما عليه, كما قال تعالى:{**والشُّعَرِاءُ يَتَّبِعُهُم الغَاوُون**}(الشعراء 224)

و قد نزّه الله نبيه عن قول الشعر فقال{ **و ما علّمناه الشّعر و ما ينبغي له**}(يس 69). وقوله تعالى :{ **أمْ يقُولُونَ شَاعِر نَتَرَبَّصُ به رَيْبِ المَنُونِ** }(الطور 30).

روى ابن كثير عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم, فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم {أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ؟}.[25]

ففي هذه الآيات من القرآن الكريم يَتَبَيَّنُ لنا :

- أنَّ الرّسول صلى الله عليه و سلم لا يليق به قول الشّعر، وأنَّه ليس في حاجة له .
- اتَّهَمَ المشركون النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم بقَوْل الشِّعر, وهذا لمعرفتهم بمكانته بين نواديهم – أي الشّعر – و ما رأوا فيه من السّحر و البيان .أثبتت الآية **{ و الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُون }** وهذا سبيل الغيّ والضَّلال, وإلا فالقرآن الكريم سبيل الخير و الهُدى [26]فلم يكن هذا الحكم حكما مُطْلَقًا, بل كان حكما مُتَعلِّقًا بأغراض الشِّعر التي عارضت الدَّعوة الإسلاميّة و قامت ضدَّها ،فالإسلام لم يُحَرِّمْ نظم الشِّعر – من خلال الآيات السابقة – ," كما يزعم البعض, ولم يهاجم الشُّعراء عامة، وإنَّما يقصد أولئك المشركين الذين يهاجمون رسول الله صلى الله عليه وسلم, وينهشون في أعراض النَّاس [27]

24ينظر محمد مندور, في الأدب والنقد ، ص35.

25أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت لبنان، (د ط) 1986,ج4ص 243.

26ينظر ختير عبد ربي, النقد الأدبي في العصر الإسلامي و الأموي ، ص 34

27واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان ، ط1 ،1994, ص 77

و ثَمَّة أحاديث أخرى في ذم الشّعر,قوله صلى الله عليه و سلم :"لأن يمتلئ جوف الرَّجل قيْحا خير له من أن يمتلئ شعرا[28]ففي هذا الحديث نرى الاستنقاص من الشَّعر ومكانته, بل والدَّعوة إلى تركه, لكنّ هذا الحكم ليس عامًّا, فهو متعلّق بالشُّعراء المشركين الذين آذوا النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم والدَّعوة الإسلاميّة, وإلا فالأحكام السَّابقة – التي تمَّ ذكرها – تُجَسِّدُ موقف الرَّسول صلى الله عليه و سلم من الشِّعر المعتدل, الذي يدعو إلى الفضيلة. وفي هذا الحديث غاية أخرى يجسّدها حثُّ المسلمين للتَّمسُك بالقرآن,والأحاديث, وترك ما يشغلهم عنهما.وهناك مَن، تتبّع طرق أصل الحديث فتوصّل إلى معناه, كما أشار إلى ذلك مصطفى إبراهيم:" قول عائشة رضي الله عنها: يرحم الله أبا هريرة حفظ أوَّل الحديث ولم يحفظ آخره, إنَّ المشركين كانوا يهاجمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا من مهاجاة رسول اللهً [29]

فقد ربط الرَّسول عليه الصَّلاة و السَّلام تحريم الشِّعر وتَجَنُّبه لمن غلب على قلبه قوله, أو كان فيه أذى للإسلام، ولهذا نجده يُكَرِّه كلَّ شعر يدعو إلى العصبيَّة. فعندما سمع قول الرَّجل ينشد :

إنّي امرؤ حُمَيْرِيٌّ حين تَنْسُبُنِي *** لا من ربيعة أبائي و لا مُضَر

فقال له : ذلك ألأم لك, وأبعد, من الله و رسوله [30].

فهذه الصُّورة الجاهليَّة التي دعا الإسلام إلى تركها ,وعدم التّعصب للأصل, وأن الأفضلية في الخلق ليست بالنَّسب وإنَّما بالتَّقوى, كما أخبر بذلك رب البرية في القرآن.

و هنا يتّضح لنا موقفا آخر للإسلام من الشّعر ، ففي أول الأمر كانت النّظرة مختلفة، فبدأت التّربيّة الإسلاميّة تُوجِّه الشّعر نحو الأفضل وربطه بمبادئ الدِّين ،"ليس الالتزام في الأدب الإسلاميّ، نقيضا للحريّة أبدا لأنّ الحريّة الحقيقيّة هي ألا تعبد أحدا إلا الله "[31].

فهنا جاء الرّبط بين الأخلاق والدّين بمنظور يوافق الفطرة، فيرى أفلاطون أنّ للشّعر رسالة سامية، إن لم يحقّقها فهو شعر فاسد ، لأنه أوهام لا تجد لها ظلال في عالم الحقيقة والشعر ينبغي أن يحثّ على فعل الخير،

28ينظر مصطفى عبد الرحمن إبراهيم, في النقد الأدبي القديم عند العرب ، ص 64

29المرجع نفسه ، ص 64

30ينظر المرجع نفسه ، ص 72

31شلتاغ عبود ، الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، ص 71

وأن يصور النّاس تصويرا ملائما من شأنه أن يؤخذ على سبيل الاحتذاء . [32]

فالتّوجيه الإسلاميّ للشّعر ، هو الذي جعل منه فنّا مصونا بعيدا عن الرّذائل, والأمر لا يتعارض مع الدّيانة الإسلاميّة الملتزمة بهذه الأخلاق، فقد عرف الكثير من الشّعراء الذين صانوا أشعارهم على النقائص، وناصروا الفضيلة ،"فالنَّبيّ صلى الله عليه و سلم، قد وظَّف المعيار الأخلاقيّ في نقده مرتبطا ببعض العبارات الذَوقيَّة التي تخضع للانطباع الشّخصي [33]

فالفكرة الإسلاميّة والتي سعت جاهدة لتوظيف الأدب توظيفا حسب معتقدها، وهنا نرى تأثير الإسلام فيه، توجيها ودعوة وإرشادا ، والأخذ بيده إلى ما يوافقه، فالدّين والأخلاق يُنزعان من قوس واحدة ، ويرميان إلى غاية واحدة،فإن هذا الربط الوثيق بينهما كربط بين الشخص وظلّه للتَّداخل بينهما، لأن الدِّين هو الرّوح بالنسبة للجسد، وما هذه الانفعالات إلا حالة طارئة"فالقضية الأخلاقيّة في الفنّ لا يُقصد بها الوعظ والإرشاد المباشر، بل للفنّ أدواته التّصويريّة الخاصّة في نقل الإحساس الأخلاقيّ وتعميمه في النّفس الإنسانيّة ,ولعله بسبب من هذا كان كتاب الإسلام الأكبر يُعمق هذا الإحساس من خلال صوره الفَنِيَّة وأساليبه النَّفسية المؤثرة [34]

فهنا قد سعى الإسلام أن يُرجع للأدب مكانته اللائقة به،وموافقته للفطرة الإسلاميّة لأن الأخلاق والدِّين هما (الذات و الروح), لأننا لا يمكن أن نتصور الدّين السماوي بأخلاقه العالية موافقا لشعر يخالفه.و قد رُوي عنه صلى الله عليه وسلم استهْجانه لبعض الأغراض, والتي فيها مساس بالمشاعر والأحاسيس, ولما تحمله من هوان و ذِلَّة فقد قال :" من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر[35]

فالذَّم المفهوم من قوله صلى الله عليه و سلم هو ذاك الكلام الذي يُلْحِق الأذيَّة بالمسلمين وبالإسلام ، وينهش في أعراضهم و يستصغر حالهم .

و مجمل القول أن النّهي الوارد في أقواله صلى الله عليه و سلم:" مُنْصَرِفُ إلى أولئك الشُّعراء الذين اتَّخذوا الشِّعر لعبا ولهوا ينالون به الأعراض,و يُشعلون به نيران الفتنة والعداوة والبغضاء بين النَّاس, ويستَنْزِفُون

32ينظر بدوي طبانه ، قضايا النقد الأدبي ، ص 63

33 محمد بن مريسي الحارثي ، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي ، ص63

34شلتاغ عبود ، الملامح العامة النظرية الأدب الإسلامي ، ص : 47

35واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام ، ص 76.

به أموالهم بالثناء و الكذب [36]

وقد قال صلى الله عليه و سلم في شأن امرؤ القيس :" ذلك رجل مذكور في الدُّنيا شريف فيها، مَنْسِيٌّ في الآخرة خاملٌ فيها, يجيء يوم القيامة معه لواء الشُّعراء إلى جهنم [37]

فهذيْن الموقفيْن من الإسلام ومن النبي صلى الله عليه و سلم يمكن أن نقول فيهما:

أولا: أن الرّسول صلى الله عليه و سلم اتُّهِم بالشِّعر لفصاحته وإعجازه, فردَّ القرآن عليهم ذلك و برَّأه ممّا قالوا، فهو لم يقل شعرا قط بل استحسنه, و سمعه و صوَّبه, وصحَّح المعْوجَّ فيما سمع منه .

ثانيا:استغلاله سلاحا للدِّفاع عن الدّعوة :" أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم بعدما تمكَّن القرآن من السَّيْطرة, ووضحت رسالته, و تبيَّن الفرق بين القرآن والشِّعر كان له موقف آخر إذ حثَّ الشُّعراء على الدِّفاع عن الإسلام [38]

ولا يُفهم من هذا أنّ هناك خلط بين القرآن والشّعر لدى العرب ,لأنّهم كانوا أعلم بهذا,لكن حتى لا يَشْغُل بالهم. فبعدما كان الشِّعر مذموما وقد مُنِع القول فيه،(لاستغلاله في مخالفة الإسلام),اسْتُغِلَّ كأحد أسلحة الدّعوة الإسلاميّة دفاعا و نشرا .

و قد صوّر شوقي ضيف حياة الشّعر في العصر الإسلامي :" و من الظُّلم للإسلام أن يُقال إنَّه كفَّ العرب عن الشِّعر ووقَّفَ نشاطهم، فقد كان يُنْشَدُ على كلِّ لسان، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله, سواء في معركة الإسلام مع الوثنِيَّين أو في الفتوح ...و لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإنَّ أحداثه حلَّت عقد الألسنة, وأنطقت بالشِّعر كثيرين لم يكونوا ينطقوه [39]

و نجد ابن رشيق القيروانيّ قد جعل أحد عناوينه،"باب في الرّدّ على من يُكرّه الشعر[40]

و قد أورد في هذا الباب عدّة أحاديث و قصص وروايات عن النَّبيّ صلى الله عليه و سلم,وعن خلفائه

36–محمد كريم الكواز ، البلاغة والنقد ص 146

37–عمر عروة ، دروس في النقد الأدبي القديم ص49

38–ينظر ختير عبد ربي ، النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي ، ص 43

39–شوقي ضيف، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط24، 2003 .ص 46

40–ينظر ابن رشيق ، العمدة ، ج 1 ص 27

وأصحابه, وقولهم الشّعر في حضرته صلى الله عليه وسلم, ومن ذلك ما راوه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها كثيرة الرّواية للشّعر,ويقال أنّها كانت تروي جميع شعر لبيد .

فالإسلام كتابا وسنَّة يرى في الشّعر النّظرة الوسطيّة, وعرف العرب بعد الإسلام وزن الكلمة, "واضطرَّ كثير ممن هجاهم حسّان إلى الاستجارة برسول الله صلى الله عليه وسلم, فرارا من شعره, فلما هجا الحارث بن عوف المرّي و هو مشرك بقوله :

وأمانة المُرِّي حيث لقيتُه * مثل الزُّجاجة صَدْعها لا يجبر**

قال الحارث للنَّبيّ صلى الله عليه و سلم :"يا محمد أجِرْني من شعر حسَّان, فو الله لو مُزِج به البحر لمزجه [41]

و معلوم أنَّ حسّان قد أذن له الرَّسول صلى الله عليه و سلم بقول الشّعرً أهج قريشا و معك روح القدس ً.

فهاتيْن النَّظرتين للشِّعر بين الاستحسان والاستهجان تُظْهِر لنا أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم قد نظر إليه من زاويتيْن:

النّظرة الأولى : أنّه يَعْتَبِر الشِّعر خطرا على الدَّعوة أثناء معركته مع المشركين ... وهو موقف نابع من غاية الشّعر التي قد تؤدي إلى الضَّرر بالدّعوة الإسلاميّة و حركتها, رغم أنّ بعض الشُّعراء هجوا الرَّسول صلى الله عليه و سلم و صحابته .

النظرة الثانية : يُفْهم منها إعجاب الرَّسول صلى الله بالشِعر وحثِّه على سماعه .

و يظهر ذلك من خلال مواقف كثيرة فقد كان يكافئ المحسن من الشُّعراء و يعفو عن المسيء منهم, و هو الذي استنشد الخنساء, وحثّ حسان على نظم الشَّعر[42]

و خلاصة القول في هذا الباب أنَّ الرَّسول صلى الله عليه و سلم قد وجَّه الشِّعر توجيها صحيحا فقد "دفع به للاغتراف من بحر العقيدة, والنَّهل من ينبوعها الثَّريّ ، وكل ما اتفق معها فهو الحقُّ، وكلّ ما جافاها أو اعتدَّ بقيم تتنكَّب لها مرفوض مُسْتَهْجَنْ, يحتاج إلى توجيه وتصويب [43]

41 سامي العاني ,الإسلام و الشعر، ص 55

42ينظر عمر عروة، دروس في النقد الأدبي ، ص 49

43مصطفى عبد الرحمن إبراهيم, في النقد الأدبي القديم عند العرب, ص 73

فالإسلام على لسان الرّسول صلى الله عليه وسلم قد قوّم الشّعر, فَسَلَب منه النّخوة ، الجاهليّة و العصبيّة العمياء, والدَّعوة إلى الظُّلم والتَّحريض والصَّدِّ عن الإسلام, وهجاء الرَّسول صلى الله عليه و سلم ، فنقَّاه وطَهَّره, وجعله طريقا للدّفاع عن الإسلام, فالكلمة لها وقعها على النُّفوس, فعندما اقتضت الحاجة إلى عدم الاشتغال بالشّعر وهذا لاشتغال الناس – والشّعراء خاصّة – بالدّعوة الإسلاميّة ,تُرِك الشِّعر, وعندما جاء المشركون وجعلوا منه سلاحا للطَّعن في الإسلام ، حذَّر النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم من هذا النَّوع, وفي نفس الوقت حثّ الشُّعراء للرَّد على هؤلاء القوم ."لقد أدرك الرَّسول صلى الله عليه وسلم القيمة الحقيقيَّة للشِّعر,حيث كونه مؤثِرا في المجتمع,ومن حيث وسيلة فعّالة للدّفاع عن الدّين,وذلك يستتبعه بالضّرورة لون من التّذوّق النّقدي بالرّفض أوالقبول,بل إنّ الأمر يتجاوز ذلك محاولة تحديد مفهوم للشّعر من حيث الصّياغة والتّركيب, وطبيعة اللّغة التي يستخدمها,ومن حيث المقام الذي يصلح له ,والمجال الذي يستدعيه[44].

فهي نظرة تربوية تدعو إلى القيم والأخلاق, وهذين الموقفين هما في قوله صلى الله عليه و سلم "إنّما الشّعر كلام مُؤَلَّف فما وافق الحق منه فهو حسنٌ، و ما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه ً. و قال ً: إنَّما الشِّعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب [45]

و هذا الكلام – والله أعلم – فيه ردٌّ جازم على من زعم أنَّ الإسلام قد استنقص الشّعر وحطَّ من قيمته, بدعوى طغيانه عن القرآن, فهذا زعم لا أساس له من الصِّحة, لأنَّ القرآن هو من تحدى الشُّعراء – لمعرفتهم باللُّغة و الفصاحة,و تعظيم النّاس لهم, ولمكانتهم بين أقوامهم – طلب منهم أن يأتوا بمثل هذا الكلام ولو بسورة واحدة, بل ولو بآية من آياته في فصاحتها ودقَّتها وحسْنِ تركيبها, فالإسلام قد أنصف الشّعر,فقال للمُحسن أحسنت, وللمسيء أسأت, فما كان فيه خير قُبِل, وما كان فيه شرّ رُفِض .

و ربَّما جاءت شبهة "إصغار العرب للشِّعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشّعراء .... القرآن إنّما يهاجم شعراء المشركين ... لم يهاجم الشّعر من حيث هو شعر، و إنَّما هاجم شعرا بعينه كان يؤذي الله و رسوله"[46].

---

44 محمد عبد المطلب جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم،الشركة المصرية العالمية للنشر,لونجمان ,ط1 1995,ص27

45 ينظر ابن رشيق، العمدة ، ج 01 ، ص 27

46ينظر شوقي ضيف, العصر الإسلامي ، ص 44

فالإسلام لم يظلم الشّعر و لم يجحد له فضلا ولاحقّا, وأولاه كل الحقِّ وجعله طريقا ومنهجا، بل نرى الشُّعراء يأخذون من المبادئ الإسلاميّة وهم يجَسِّدونها ويظهرونها للنّاس, تربية وأدبا, و قد استعمله الإسلام لنشر دعوته ,لما عرف من مكانته في القلوب وتعظيمه في النُّفوس, بل جعله المثل الأعلى لأدبهم ,و لهذا نجدهم قد اتَّهَمُوا النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم بأنَّه شاعر؛ لما يروه من السِّحر و البيان . فالإسلام كان بين من غلا جفا في هذا الجانب,فكلُّ شعر فيه خير قَبِلَه, وكلّ شعر فيه شرّ نبذه و تركه"فالمتتبّع لمواقف الرّسول الكريم في مدح الشّعر وذمّه يلمس لأول وهلة أنّه أمام معيار أخلاقيّ جديد نُظر إلى الشِّعر من خلاله...غير أنّ الذي يمعن النظر في مواقفه صلى الله عليه وسلم يدرك أنها لا تهدف إلى تكوين معيار نقدي أخلاقيّ محدد يُحكم على الشعر من خلاله بالجودة أو الرداءة أو بتقدّم شاعر أو تأخيره,أو إبراز قيم أدبية ,وإنّما كانت تهدف أساسا إلى توجيه الشّعر والشّعراء توجيها إسلاميا أخلاقيا يتفق مع سنن الدّعوة الإسلاميّة ويلاءم الفطرة السّليمة ولا يؤذيها"[47]

47محمد بن مريسي الحارثي,الاتجاه الأخلاقي في النقد ، ص 61

المحاضرة الرابعة :الشعر السياسي في العصر القديم

– الشعر السياسي وظهوره:

كثرت الخلافات والنزاعات السياسية بين العرب أنفسهم, وبين العرب والموالي, كما كثر الاضطهاد السياسي لخصوم الدولة الأموية, لذلك برزت ظاهرة الشعر السياسي, الذي أصبح الشعر فيه لسانا يعبر عن أهداف الجهة التي ينتمي إليها الشاعر.

فالشعر السياسي في أبسط تعريفاته, هو الشعر الذي قاله " الشعراء المناصرون للأحزاب السياسية المتنازعة على الخلافة في العصر الأموي. وكان الشعر المستمر بين الشعراء المتهاجين يدعى النقائض".[1]

وقريب إلى هذا التعريف, ما راه الأستاذ حنا الفاخوري أن الشعر السياسي, هو الشعر الموجه نحو هدف واحد هو السياسة, يصل إليه بطرق مختلفة تكون مدحا أو هجاء أو وصفا أو ما إلى ذلك, يمدح المذهب وأصحابه, ويهجو غيره من المذاهب المعارضة, وذلك عن عقيدة سياسية في الشاعر أو عن غيره عقيدة, ويفرض في هذا الشعر أن يكون حماسيا قويا, لأنه شعر العواطف المتناحرة في سبيل الحياة والدين والحرية والسيادة, وهذه الصبغة الحماسية تغلب فيه مهما اختلفت أغراضه ونزعاته.[2]

وهكذا, ظهر الشعر قويا في العراق والشام أكثر من الأمصار الأخرى, وذلك بسبب ظهور الأحزاب السياسية, وعودة العصبيات العربية القديمة, وبروز العصبية الجنسية(الشعوبية), وكثرة الفتن والحروب, فكان الصراع السياسي فيه مستفحلا شديدا, وهذا النوع من الشعر السياسي الديني يمثل:

أ– شعر الخوارج: سموا بهذا الاسم لخروجهم على علي في موقعة صفين,[3] حين قبل التحكيم بينه وبين معاوية. أو هي: من الخروج اعتمادا على قوله تعالى: " ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله",[1] ومن فرقه:

---

[1] – عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي, دار العلم للملايين, بيروت, ط4, 1981.ج:01, ص 360

[2] – حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي في المغرب, منشورات المكتبة البوليسية, لبنان,ط1, 1982م.ص: 267

[3] – موقعة صفين: هي المعركة التي وقعت بين جيش علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما في شهر صفر عام سبعة وثلاثين للهجرة, وكان ذلك بعد حدوث معركة الجمل بعام, وحدثت هذه المعركة على الحدود السورية العراقية, وانتهت باللجوء إلى التحكيم بالقران الكريم في شهر رمضان المبارك:
وقعة صفين http://ar.wikipedia.org/wiki/

الأزارقة: أصحاب نافع بن الأزرق, والصفرية أتباع: زياد بن الأصفر, والإباضية أتباع عبد الله بن أباض, وقد حاربوا عليا وكذلك معاوية لكنهم فشلوا ومذهبهم يقوم على المساواة بين المسلمين, وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى, وأن الخلافة تكون لأكثر الرجال كفاية وتقوى دون مراعاة لجنس أو طبقة.

يمتاز شعرهم ب:

– هو شعر جديد في موضوعه يسعى إلى تحقيق الحكم الصالح, إذن, هو شعر مذهب حديث أوجده الإسلام وغذاه بأصوله السياسية والدينية, وهو جديد في معانيه وأسلوبه إذ يستمد ذلك من القران الكريم والسنة النبوية الشريفة.

– هو شعر صادق التجربة, لأن الشعراء هو الزعماء وهم أصحاب المذهب وهم المحاربون, وقد فرغوا لفنهم فلم ينزفوا بالشعر, ولم يطرقوا أغراضا أخرى إلا قليلا.

– وهو شعر يمجد حزب الخوارج, ومذهبهم وأفكارهم, ولا يلتفت إلى العصبية القبلية.

– إن الشعراء احتفظوا بالطابع البدوي الصافي, والأخلاق العالية, والدين الصادق, والبلاغة القرآنية, فكان شعرهم إسلاميا جديدا.

إذن, إن هذه الخصائص جعلت شعر الخوارج يبتعد عن تقليد القدامى في المقدمة وتعدد الفنون في القصيدة, وأصبح الموضوع واحدا والصور متشابهة حماسية.

من شعرائهم:قطري بن الفجاءة, الذي كان مؤمنا بمذهب الخوارج السياسي, يعيش لأجله ويشيد بحملته, وقد تأثر تأثرا بليغا حين قتل أبو بلال مرداس أحد زعماء الخوارج, يقول في مقتله:[2]

لقد زاد الحياة إلي بغضا وحبا للخروج أبو بلال

أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرى العوالي

فمن يك همه الدنيا فإني لها والله رب البيت قالي

[1] – سورة النساء:100

[2] – أحمد أمين: ضحى الإسلام, ملتزمة الطبع والنشر, القاهرة,ط7, 1973م. ج03, ص 342

ب– شعر الشيعة: ترجع نشأة هذا الحزب إلى ذلك الفريق من الصحابة الذين رأوا عند وفاة النبي أن أحق الناس بالخلافة علي, وقد عارضوا حكم الأمويين ثم حكم العباسيين وحلت بهم مآس كثيرة انعكست في شعرهم, ولعل أهم خصائص شعرهم:

– إن شعر الشيعة يجمع بين الاحتجاج لأحقية الشيعة في الخلافة والتصوير لما حل بهم من نكبات, يتزعم الكميت بن زيد شعر الاحتجاج في " هاشمياته", أما دعبل الخزاعي, فهو من الشعراء الذين صوروا مأسي العلويين.

– أسلوبهم هادئ رزين حين يعمد إلى الاحتجاج العقلي والديني, وثائر قوي حين يغضب, ورقيق فاجع حين يبكي ألام العلويين.

– شعرهم جديد في موضوعه ومعانيه وأسلوبه.

ومن شعرائهم: الكميت بن زيد, وكثير بن عبد الرحمن(كثير عزة)

برع الكميت بن زيد في الشعر فطلب به الجوائز والعطايا, وقد بدأت صلته بالهاشميين مبكرة, وكان يدافع عن زيد بن علي بن الحسين إمام الفرقة الزيدية, واشتهر الكميت بهاشمياته, وهي القصائد التي قالها في بني هاشم لإثبات حقهم السياسي والديني في الخلافة, فقد كان شعره مناظرات في حقوق الهاشميين يستعين فيها بالأدلة والنظر العقلي وآيات القران الكريم على تقرير حق البيت الهاشمي في الخلافة, ومنها قوله:

يرون لهم فضلا على الناس واجبا سفاها وحق الهاشميين أوجب

ولكن مواريث ابن أمنه الذي به دان شرقي لكم ومغرب

(...)

وما كانت الأنصار فيها أذلة ولا غيبا عنها إذا الناس غيب

هم شهدوا بدرا وخيبر بعدها ويوم حنين والدماء تصبب

فإن هي لم تصلح لحي سواهم فإن ذوي القربى أحق وأقرب[1]

ج– شعر الزبيريين: ينسب إلى عبد الله بن الزبير بن العوام الذي اعتصم بمكة لما تولى يزيد بن معاوية الخلافة, ودعا لنفسه, وقد التجأ إلى مكة التي لا يحل فيها القتل وسفك الدماء, اتسعت دعوته وولى أخاه مصعبا واليا على البصرة, ولكن ما لبث عبد الملك بن مروان أن قتل مصعبا ثم قتل أخوه في مكة على يد الحجاج بن يوسف ودام حكمه تسع سنين.

من أشهر شعراء هذا الحزب عبيد الله بن قيس الرقيات, الذي يقول:[2]

حبذا العيش حين قومي جميع لم تفرق أمورها الأهواء

(...)

أيها المشتهي فناء قريش بيد الله عمرها والفناء

(...)

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء

أنا عنكم بني أمية مزور وأنتم في نفسي الأعداء

د– شعر الأمويين: بعد مقتل الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رفض معاوية

مبايعة علي بن أبي طالب واستقل في الشام التي كان واليا عليها وطالب بالثأر من قتله عثمان مدعيا حقه في الخلافة, وبعد حروب ومعارك أل الأمر إلى هذا الحزب وتولى معاوية الخلافة, حيث أقام في الشام وجعل دمشق عاصمة لحكمه.

[1] – شرح هاشميات الكميت بن زيد الأسدي, قرأها ووضع حواشيها: محمد نبيل طريفي, دار صادر, بيروت,ط1, 20000م ص: 524, و 528

[2] – عبيد الله بن قيس الرقيات: الديوان, تحقيق وشرح: عزيزة فوال بابتي, دار الجيل, بيروت, ط1, 1416هـ– 1995م ص: من 42 إلى 48

أصبح القصر الأموي في الشام هدفا للشعراء الذين يريدون أن يتخذوا المدح وسيلة للتكسب وموردا من موارد الرزق وفرصة للشهرة والظهور والمجد الأدبي الذي تضفيه الصلة بالقصر على من يتصل به من الشعراء الطامحين.

ومن هنا, كان ظهور المدح وازدهاره ظاهرة طبيعية في ظل عز الدولة سياسيا واقتصاديا وفكريا وفي ظل ما عرفت من عناية الخلفاء بالشعر واحتفائهم به يتذوقونه ويقدرونه ويطربون له, وقد لمع من بين الشعراء الفحول ثلاثة, الفرزدق والأخطل وجرير.

يقول جرير مادحا عبد الملك بن مروان:[1]

أتصحو بل فؤادك غير صاح عشية هم صحبك بالرواح

يقول العاذلات: علاك شيب أهذا الشيب يمنعني مراحي؟

(...)

أغثني, يافداك أبي وأمي, بسيب منك, إنك ذو ارتياح

(...)

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

(...)

أبحث حمى تهامة بعد نجد وما شيء حميت بمستباح

في العصر الأموي بالإضافة إلى هذه الأحزاب التهبت العصبية القبلية[2] بعد أن خدمت في صدر الإسلام, ونتيجة لهذه العصبية عادت إلى الواجهة كثير من شعائر الحياة الأدبية الجاهلية,

[1] – جرير: الديوان, دار بيروت للطباعة والنشر, بيروت, د.ط, 1406هـ – 1986م, ص: 76–77

[2] – العصبية القبلية: من التعصب يعني التمسك بالشيء والتشدد له. أو بمعنى أخر: هي مصطلح يعني الموالاة بشكل تام للقبيلة أو العشيرة أو العائلة ومناصرتها ظالمة أو مظلومة:
عصبية قبلية http://ar.wikipedia.org/wiki/

وانعكس ذلك في: قصائد المفاخرات والمهاجاة, وانتعشت الأسواق الأدبية فكان منها سوق " المربد" في البصرة, أو سوق " الكناسة" في الكوفة.

2/ عوامل ازدهار الشعر السياسي العصر الأموي:

– تعدد الأحزاب السياسية: يعد تعدد الأحزاب السياسية في العصر الأموي من أهم الأسباب والعوامل في ازدهار الشعر عامة, والشعر السياسي خاصة لما لصراع هذه الأحزاب, واختلافها من أثر فاعل في الأدب إذ إنها بذلك قد فجرت ينبوع الشعر, الذي راح يعبر عن أراءها السياسية, ويدافع عنها محاولا النهوض بمعالمه الفنية لغة, وصورا, وخيالا.

– اهتمام الحكام بالشعراء: فقد حرص الأمويون على استغلال الشعر, واجتذاب الشعراء إلى قصورهم ليتخذوا منهم ألسنة تدافع عنهم, وعن دولتهم, وتهاجم خصومهم, ولم يقتصر الأمر على خلفاء بني أمية, بل انتهج ولاتهم وقوادهم نهجهم في ذلك حتى صار الشعر السياسي, كما يرى بعض الباحثين أعلى ضروب الشعر صوتا في عهدهم.[1]

– ازدهار الثقافة الأدبية: فقد ازدهرت الثقافة في هذا العصر فكان الحكام, والناس يعتزون بما خلف العرب من تراث أدبي ولغوي, ويتجلى هذا الازدهار أيضا في المجالس الأدبية, التي كان يعقدها خلفاء بني أمية لاستماع المديح, ورواية الشعر ونقده, والاستشهاد به, وقد كثر رواة الشعر في هذا العصر, وكانوا يحرصون على جمعه, وحفظه, وتدوينه من أمثال:

أبي عمر بن العلاء, وحماد الرواية.

– التحريض على التهاجي: إذ كان كثير الأمويين, وولاتهم يغرون بعض الشعراء, ويحثون بعضهم على الهجاء يريدون بذلك أن يضعفوا من شعراء لم يناصروهم.

وقد اختلف النقاد في وصف الشعر الأموي بين من جعله كالشعر الجاهلي تماما, فلا ينظر فيه إلا ظل الماضي الجاهلي, ونقاد رأوا فيه منهجا جديدا مختلفا عن الشعر الجاهلي

[1] – ينظر: إيمان عبد الحسن علي البهبوادي: الشعر السياسي, محاضرات, قسم علوم القران, كلية العلوم الاسلامية: http://www.uobabylon.edu.iq/uobColeges/lecture.aspx?fid=19&depid=2&lcid=5591

ومن الألوان الفنية البارزة في هذا العصر, وذات علاقة بالشعر السياسي, النقائض, التي جاءت من الفعل نقض أي هدم, فرغم أن له أصولا جاهلية إلا أنه أصبح ظاهرة واسعة الانتشار, وذلك أن يقوم شاعر قبيلة فينظم قصيدة يفتخر بقبيلته وأمجادها, ويتعرض لخصومها بالهجاء فينبري له شاعر من شعراء تلك القبائل يرد عليه بقصيدة على وزن قصيدته ورويها ويتتبع أفكاره ومعانيه فينقضها.

ولذلك, كشفت القصيدة في هذا المجال عن نمو العقل العربي ومرانه الواسع على الحوار والجدل والمناظرة, كما كان الشاعر يدرس موضوعه دراسة دقيقة, ويبحث في أدلته ليوثقها وفي أدلة خصمه لينقضها دليلا دليلا.[1]

وعند إلقاء هذه القصائد كان الناس يتحلقون حول الشاعر يصفقون ويهتفون, ومن ثمة, تحولت النقائض من غاية الهجاء الخالص إلى ضرب من ضروب اللهو, وبذلك, عمد الشعراء إلى ظاهرة التدبر على المهجو وقبيلته لاستشارة ضحك الحاضرين, وعليه, يعمد الشعراء في هذا اللون إلى الدمج بين غرضي الفخر والهجاء.[2]

من أشهر شعراء النقائض: جرير والفرزدق والأخطل

سنختار من هؤلاء الأعلام قصيدة الأخطل بدا واضحا فيها الشعر السياسي, وهو يرتدي ثوب النقائض, منها يقول:[3]

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير[4]

إلى امرئ لا تعدينا نوافله أظفره الله, فليهنأ له الظفر[1]

---

[1] – ينظر: مدخل إلى دراسة الأدب: جامعة أم القرى: http://drive.uqu.edu.sa/-/aamasswdi/files/omwi-.doc

[2] – ينظر: خصائص الشعر في العصر الأموي: www.uobabylon.edu.iq/eprints/pubdoc-6-24162-483.docx

[3] – الأخطل: الديوان,شرحه وصنف قوافيه وقدم له: مهدي محمد ناصر الدين, دار الكتب العلمية, لبنان,ط2, 1414هـ-1994م, ص 100

[4] – خف: أسرع. القطين: القوم الذين يسكنون الجوار.راحوا : ساروا , في العشيو ويستعمل الرواح للمسير في أي وقت كان من ليل أو نهار. بكروا:ارتحلوا باكرا. النوى: البعد والجهة التي يقصدون. الصرف: التغير والتغلب, الغير: المتاعب. المصدر نفسه, ص 100

الخائض الغمر, والميمون طائره خليفة الله يستقي به المطر[2]

وما الفرات إذا جاشت حوالبه في حافتيه, وفي أوساطه, العشر[3]

وذعذعته رياح الصيف واضطربت فوق الحاجي من اذيه غدر[4]

هذه القصيدة من أروع قصائد المدح السياسي, ظهر فيها الأخطل شاعرا جامعا بين السياسة القائمة, والعصبية القاسية, بل شاعر التقليد الشخصي والنبوغ الفردي, حيث قالها في عبد الملك بن مروان,[5] مادحا فيها الأمويين جملة, ومفتخرا بنفسه, ومبينا فضل قبيلته على بني أمية, فضلا عن هجاء الأعداء.

[1] – لا تعدينا: لا تخلينا ولا تنصرف عنا, نوافله: عطاياه. المصدر نفسه, ص 100

[2] –خاض: دخل واقتحم. الغمر: كثرة المياه وهنا المقصود الحرب. المصدر نفسه, ص 100

[3] – جاشت: فاضت. العشر: شجر صلب وقاس. المصدر نفسه, ص 100

[4] – ذعذعته: حركته تحريكا شديدا, الحاجئ: جمع جؤجؤ: وهو صدر الطائر أو السفينة, الاذي: الموج. الغدر والغدران واحد: مفردها غدير, وهو مكان اجتماع الماء. الأخطل: الديوان, ص 100

[5] –عبد الملك بن مروان, أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي(26–86م/ 646–705م), الخليفة الخامس من خلفاء بني أمية, المؤسس الثاني للدولة الأموية: عبد الملك بن مروان http://ar.wikipedia.org/wiki/

المحاضرة الخامسة : قضية الصراع بين القديم والجديد

العصر العباسي كان عصر صراعات كبيرة ، كانت نتيجة للتحولات العميقة التي شهدتها الحياة العربية ، مع بداية العصر العباسي، وقد كانت قضية الصراع بين القديم والجديد المادة الدسمة التي أثرت صفحات الكتب النقدية آنذاك؛ فقد "أصبح من الحقائق الواضحة في تاريخ النقد العربي ، أن الشعر في العصور الإسلامية، ظل يتجاذبه اتجاهان فنيان ، أحدهما قديم والآخر محدث. وقد كان لكل اتجاه من هذين في البداية، مفهوم خاص، ولكنه تغير بعد ذلك، تبعاً لتغير الزمن، وتبدل ذوق العصر وفكره؛ فمثلاً كان مفهوم القديم في عصر الرواة الأوائل كأبي عمرو بن العلاء159هـ، وحماد158هـ، وخلف الأحمر180هـ مقتصراً على الشعر الجاهلي وحسب، أما المحدث فهو كل شعر ظهر بعد ذلك"[1].

والصراع بين القديم والمحدث أمر طبيعي؛ ذلك أن أي مستحدث مرفوض، ومن أبرز المنتصرين للشعر القديم الرافضين للمحدث ابن الأعرابي، إذ يقول المرزباني صاحب الموشح عنه: "أخبرنا أبو بكر الجرجاني، عن أحمد بن عبيد بن ناصح، قال: سمعت ابن الأعرابي يقول: إنما أشعار هؤلاء المحدثين – مثل أبي نواس وغيره– مثل الريحان يُشمُّ يوما ويذوي فيرمى به ؛ وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا"[2] ، وكان أصحاب مذهب القديم ، يرفضون كل محدث حتى إن وجدوا فيه جمالاً ؛ من ذلك أن رجلاً "أنشد ابن الأعرابي شعراً لأبي نواس أحسن فيه ، فسكت . فقال له الرجل : أما هذا من أحسن الشعر؟ ...فقال : بلى ، ولكن القديم أحب إلي"[3].

وكل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة إلى كل من قبله، "وكان أبو عمروا ابن العلاء يقول : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته! يعني بذلك

[1]–عثمان موافي،الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها،دار المعرفة الجامعية،مصر،2000،ص13

[2] – المرزباني، الموشح، تح:علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص313.

[3] –المرزباني ،المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

شعر جرير والفرزدق فجعله مولداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين"[4].

ويواصل ابن رشيق ؛ ليعرض قول الأصمعي عن أستاذه أبي عمرو بن العلاء، "قال الأصمعي: جلست إليه ثمانى حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي![5].

هذا عن مذهب المنتصرين للقديم ؛ بينما نجد طرفا آخر يمثله ابن قتيبة ، وأبو محمد بن وكيع ، وغيرهما ممن تقبلوا الشعر المحدث؛ إذ "كان مؤلف الشعر والشعراء لابن قتيبة مثالا للتأليف الذي اتسم بالاعتدال والإنصاف في قضية نقدية سميت في القرن الثالث الهجري بالخصومة بين القدماء والمحدثين وجاء كتاب ابن المعتز طبقات الشعراء المحدثين ليتمم مسيرة السابق ويسد ثغراته عن طريق التأليف في الشعراء المحدثين وإنصافهم غاية الإنصاف ... وتداول المؤيدون والمعارضون جميعا حججهم التي تدور حول معاني ذلك الشعر وأساليبه ويتبارى النقاد في التأليف حول هذه الخصومة فيكتب ابن المعتز رسالة في محاسن أبي تمام ومساوئه التي ترينا صورة للنقد الأدبي عند الأدباء المحدثين جلية ويؤلف أحمد بن أبي طاهر 280هـ كتابا عن سرقات أبي تمام و يكتب أبو الضياء بشر بن تميم عن سرقات البحتري و يكتب ابن عمار 219هـ عن أخطاء أبي تمام.ثم يدخل بعد ذلك الناقد الفد أبو الحسن بن بشر الآمدي 370هـ ميدان التأليف حول هذه الخصومة فيؤلف كتابه الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري يلخص فيه الآراء التي تضمنتها معظم المؤلفات التي كتبت قبله حول هذا الموضوع ثم يناقش كثيرا من قضايا هذه الخصومة"[6].

---

[4]–ابن رشيق ، العمدة ، ص80.

[5] –ابن رشيق،المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[6]– بشرى عبد المجيد تاكفراست،النقد الأدبي في تقويم النقاد المحدثين، آفاق للدراسات والنشر ، مراكش، ط2،2013، ص112.

وهكذا موضوع الخصومة بين القدم والحداثة شغل الرأي العام، ودار حوله حوار واسع؛ ملأ صفحات الكتب النقدية التي زخر بها العصر العباسي؛ الأمر الذي سنعرضه في الصفحات الموالية.

مفهوم الشعر عند النقاد المشارقة والمغاربة

يمكن الإشارة إلى مفهوم الشعر انطلاقا من النثر الذي هو وسيلة التخاطب اليومي؛ يقول ابن رشيق في العمدة : "وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمحائها الأجواد، لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم؛ فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا"[7].

من هنا نلمس بوضوح ماهية الشعر؛ فهو كلام مخصوص ، إنه تعبير عميق عن الذات ، وعن كل جوانب الحياة، مع خاصية الغنائية التي تتحقق بالوزن ، ويمكن أن ندعم هذا الرأي ببعض ما ورد عن نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم ، وعن بعض صحابته رضي الله عنهم، فقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه قال:" إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه"... وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه. وقال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : الشعر ميزان القول"[8].

كما "قال معاوية رحمه الله: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب ... وقال ابن سيرين: الشعر كلام عقد بالقوافي، فما حسن في الكلام حسن في الشعر، وكذلك ما قبح منه"[9]

---

[7]– ابن رشيق ، العمدة ، ج1 ، (م س)، ص12.

[8]– المصدر نفسه، ص 19/18.

[9]– المصدر نفسه، ص 20/19.

وقد عرف اللغويون الشعر بمعنى "العلم بالشيء والتفطن له وإدراكه وقالوا إن كل علم يدعى شعرا ولكنه غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن و القافية وعرف نقاد العرب ما بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي من صلة فقالوا إنما سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر من معاني القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره وإذا كان إنما يستحق اسم الشاعر بما ذكرنا فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس بشاعر و إن أتى بكلام موزون مقفى فكان النقاد يرون الشعر إلى جانب أنه موزون مقفى لا بد أن تكون فيه معاني يشعر بها قارض الشعر تخصه دون غيره من الناس"[10].

وإذا أردنا تقديم تعريف للشعر يتميز بالشمول والدقة؛ فإننا نعرض تعريف "القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني– صاحب كتاب الوساطة–: الشعر علم من علوم العرب، يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان"[11].

كما يمكن عرض مفهوم الشعر عند قدامة بن جعفر ؛ الذي يركز في نظرته على الجوانب التي تميز الشعر؛ إذ يقول: "إنه قول موزون مقفى يدل على معنى فقولنا«قول» دال على أصل الكلام الذي بمنزلة الجنس للشعر، وقولنا «موزون» يفصله مما ليس بموزون،إذ كان من القول موزون وغير موزون، وقولنا «مقفى» فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع، وقولنا «يدل على معنى» بفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى"[12].

ويشير قدامة إلى أن الشعر يتحقق بهذه السمات؛ لكن يظل التفاوت في الجودة والرداءة " فإذا تبين أن ذلك كذلك ، وأن الشعر هو ما قدمناه، فليس من الاضطرار إذاً أن يكون ما

[10]– أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب،دار نهضة مصر للنشر، ط9،2013ص107

[11]– العمدة ، (م س) ، ص 109.

[12] – قدامة بن جعفر،

هذه سبيله جيداً أبداً ولا رديئاً أبداً، بل يحتمل أن يتعاقبه الأمران، مرة هذه أخرى هذه على حسب ما يتفق، فحينئذ يحتاج إلى معرفة الجيد وتمييزه من الرديء. ولما كانت للشعر صناعة ، وكان الغرض في كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على التجويد والكمال ، إذ كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن فله طرفان ، أحدهما غاية الجودة والآخر غاية الرداءة، وحدوده بينهما تسمى الوسائط"[13].

وللكشف عن مدى الجودة والرداءة ؛ جاء النقد الأدبي ليضع كل نص في الطبقة الملائمة، وعبارة قدامة في تعريف الشعر تدل على أنه أول من حاول هذا التحديد إذ يقول وليس يوجد في العبارة أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه أنه قول موزون مقفى يدل على معنى فكلمة يقال فيه تشعر بأن ذلك التحديد من عمله... وسوف نرى أن تلك الخاصة من أبرز الخواص في الشعر بل هي الخاصة التي فرق بها ابن طباطبا بين الشعر و النثر إذ يقول الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماء وفسد على الذوق فهو لم يفرق بين الشعر والنثر بغير هذه الخاصة"[14].

يمكن الإشارة إلى أن نقاد العرب قد أدركوا "أن الشاعر إنسان غير عادي يمتاز بأمرين أولهما : الفطنة والذكاء و التنبه للمعاني التي لا يتنبه إليها سواه ولم يفطن النقاد و حدهم إلى هذه الخاصية في الشاعر بل إن العرب أنفسهم الذين أطلقوا هذه الكلمة عليه فطنوا إليها منذ القديم فإنهم قد اشتقوها من شعر إذا علم بالأمر و فطن له و عقله. ثانيهما مقدرته على أن يصف ما فطن له وأن يبين عن شعوره في عبارة واضحة و هذا هو ما عناه صاحب نقد النثر عندما قال و الشاعر من شعر يشعر شعرا و إنما سمي شاعرا لأنه يشعر من معاني القول

[13] _

[14] أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب،دار نهضة مصر للنشر، ط9،2013 ، ص107.

و إصابة الوصف بما لا يشعر به غيره يريد أن الشاعر يدرك المعاني التي هي مجال القول و يصيب في وصفها"[15].

ويضع ابن رشيق شرطاً للشاعر المفلق فيقول: " يجب للشاعر أن يكون متصرفاً في أنواع الشعر: من جد وهزل، وحلو وجزل، وأن لا يكون في النسيب أبرع منه في الرثاء، ولا في المديح أنفذ منه في الهجاء، ولا في الافتخار أبلغ منه في الاعتذار، ولا في واحد مما ذكرت أبعد منه صوتاً في سائرها، فإنه متى كان كذلك حكم له بالتقدم، وحاز قصب السبق، كما حازها بشار بن برد وأبو نواس بعده"[16]

أما ابن قتيبة فقد ذهب في نظرته إلى الشعر إلى تصنيفه إلى أربعة أضرب، وحصرها في اللفظ والمعنى؛ بين جودتهما معا أو رداءتهما معا أو جودة أحدهما، لكن تحديد هذه الأضرب الأربعة لا نلمس فيه تحديداً دقيقاً لمعنى الشعر؛ كما لا يميزه عن النثر، وسنعرض إلى هذه الأضرب في حديثنا عن قضية اللفظ والمعنى.

قضية اللفظ والمعنى عند نقاد الأندلس والمغرب العربي

قضية اللفظ والمعنى من القضايا المحورية في النقد العربي القديم، ذلك أن "اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته"[17]. حسب ما ورد عن ابن رشيق القيرواني؛ الذي نعرض تفصيلاً لرأيه؛ على اعتبار أنه أحد أبرز نقاد المغرب العربي –حسب ابن رشيق – الذي هو من النقاد المغاربة ، ونقدم رأيه مع محاولة لاستنتاج خلاصة انطلاقا من آراء النقاد المشارقة السالفي الذكر.

وابن رشيق يربط صحة الشعر بصحة الطرفين "اللفظ" على الخصوص؛ فيقول: "فإذا سلم المعنى واختل اللفظ كان نقصاً للشعر وهُجنة عليه كما يعرض لبعض الأجسام من العرج

[15] المرجع السابق ، أحمد أحمد بدوي، ص22

[16] – ابن رشيق، العمدة، ص 125.

[17] – ابن رشيق، العمدة، (م س)، ج1 ، ص112.

والشلل والعور – وما أشبه ذلك – من غير أن تذهب الروح، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح فإن اختل المعنى كله وفسد – بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة في السمع كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحا في غير جسم البتة"[18].

ويشير ابن رشيق إلى أن النقاد والشعراء ،"منهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته كابن الرومي وأبي الطيب... وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى، سمعت بعض الحذاق يقول: قال العلماء: اللفظ أغلى من المعنى ثمنا وأعظم قيمة وأعز مطلبا فإن المعاني موجودة في طباع الناس"[19]. ويظل ما يربط بين اللفظ والمعنى صلة تكامل، أو كصلة الجسم بالروح. أو كما قال ابن رشيق.

قضية التأويل بين القديم والجديد

لم يعد من السهل ولوج عالم النص لكشف أغواره، بل الأمر يتطلب كثرة مدارسة، والنصوص المستعصية أضحت اليوم الأكثر قربا من النفس، وإن كان هذا الأمر لا ينطبق على شعرنا العربي القديم الذي كان من خصائصه (المعنى المسبق)؛ لكن ميلاد الشعر المحدث منذ العصر العباسي، وتطور شعر الزهد التصوف، كانت المعاني الغريبة ، إلى جانب الغامضة، ومنها كانت الحاجة إلى التأويل بدل الشرح والتفسير و"التأويل فعالية ذهنية إنسانية ، تتيح للمتلقي تعمق أغوار النص، والبحث عن حقائقه المضمرة، وربما المغمورة لاعتبارات

[18] – ابن رشيق ، نفسه ، الصفحة نفسها.

[19] – ابن رشيق ، نفسه، ص114.

خاصة بغرض فهمه. فالتأويل يشكل التجسيد العملي لمضون الفهم في كل عملية تواصلية"[20].

والتأويل رغم ذيوع صيته في النقد الغربي ؛ إلا أن هذا المصطلح لم يغب عن نقدنا العربي ، ففي اللغة جاء في لسان العرب "الأول الرجوع آل الشيء يؤول أولا ومآلا وأوّل إليه الشيء رجعه"[21]. و"المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ،عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل، لولاه ما ترك ظاهر اللفظ"[22].

وقد "ارتبط مصطلح «التأويل» في التراث الأدبي العربي ب(فعل القراءة/ التلقي) للنص بغرض فهمه ومعرفة مضمونه.فكان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت هو وجود مضامين ثابتة وحقائق نهائية بخصوص المعاني المطروحة في النص، وسار هذا الفعل –أي فعل القراءة– محتفظا بهذا المفهوم فترة طويلة من الزمن ، حتى ظهرت المدارس النقدية الحديثة ووضعت مفهوما جديدا للقراءة، وربطت فعل القراءة بفعل التأويل في محاولة منها لإعادة النظر في علاقتنا بالنصوص الأدبية[23].

ويمكن الإشارة أخيرا إلى قضية التأويل ارتبطت بالقرآن الكريم، الذي نحتاج لأجل فهمه تفسيرا عميقا؛ وهذا من مظاهر إعجازه، كما ارتبط المصطلح بالتجربة الصوفية التي عادة ما يسمها الغموض؛ وبالتالي قراءة شعر الصوفية يحتاج دائما إلى تأويل، كل هذا يوضح تجربة العرب المسلمين العميقة مع التأويل.

[20] –لطفي فكري محمد الجودي،النص الشعربوصفه أفقا تأول المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011، ص15.

[21] –لسان العرب، مادة آل.

[22] –لطفي فكري محمد الجودي، المرجع السابق، ص16.

[23] – لطفي فكري محمد الجودي، المرجع السابق، ص 18.

المحاضرة السادسة : النص الشعري القديم في ضوء نظرية عمود الشعر

مما جاء في لسان العرب عن لفظ العمود أنه " الخشبة التي يقوم عليها البيت. وأعمد الشيء : جعل تحته عمداً...والعمود : الخشبة القائمة وسط الخباء، والجمع أعمدة وعمد ، والعَمَد اسم للجمع ... وعمد الحائط يعمده عمْدا : دعمه ؛ والعمود الذي تحامل الثقل عليه من فوق كالسقف يُعْمَد بالأساطين المنصوبة"[1]، إذا ارتبط لفظ "عمود" عادة بما يقوم عليه البناء ؛ فإنه في الشعر ليس سوى ما يقوم عليه الشعر العربي من تقاليد ، فالنقاد يذهبون إلى أن عمود الشعر هو "مجموعة التقاليد الشعرية التي يحرص عليها العرب في نظم قصائدهم"[2]، وقضية عمود الشعر وردت في العديد من المؤلفات النقدية؛ خاصة وسط الصراع بين المتمسكين بالقديم والمناصرين للمحدث، وهكذا كان كل خارج عن عمود الشعر من الشعراء فهو مخالف لتقاليد العرب الشعرية.

يعد المرزوقي من أوائل الباحثين في نظرية عمود الشعر . والتي استقرت في عناصر جمعها في مقدمة شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، فهذه العناصر تسلسلت في سبع أبواب تتفرع من الشعر لتميز غثه من سمينه، وجزيله من رديئه للحفاظ والإبقاء على طريقة العرب في الكلام والاعتماد عليها بالنظر لجزالة اللفظ، وسلامة المعنى، ونجد هذه الأبواب والعناصر التي اعتمدتها كالأتي شرف المعنى وصحته جزالة اللفظ واستقامةوالإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة، كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات والمقاربة في التشبيه والتحام والنظم التئامها على التخيّر من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له ومشكلة اللفظ والمعنى[2].

فنجد لكل باب معيار خاص بيه، فتلك هي مقومات عمود الشعر وعناصره وهي :

1–شرف المعنى : فعيار المعنى أن يعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب فإن انعطف عليها جنبتا القبول والاصطفاء مستأنسا بقرائنه.[3]

لذا يرى المرزوقي بأن المعنى يكون يعرض على العقل بما يناسبه ليقضيه الحال ويسهل للقارئ من جهة التقبل والفهم لتوضيح المعنى وقوته ولهذا أرتأينا إلى عدة نماذج من الشعر لذ دل على ما ذكرناه .

[1] ابن منظور ، لسان العرب ، ص3097. -
[2] عروة عمر ، دروس في النقد الأدبي القديم ، ص105. -

–هي، يقول تأبط شرا في قصيدته :

إنّي لمهدتني ثنائي فقاصد به لابن عمّ الصّدق شمس بن مالك

اهتز به في ندة الحي عطفه كما هز عطفي بالجهاتألأوارك

قليل الشكي للهمم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك [4]

من خلال دراستنا لهذه الأبيات نجد بأن الشاعر أعتمد في كتابة قصيدته على قوة المعنى وشرفه وذالك من خلال سبكه الجيد لمعاني القصيدة وهذا من أجل أن يفهم من طرف القارئ والمعنى في هذه القصيدة هو أن الشاعر يشرح لنا بأن هذا الثوب ثوب صدق وموضع الفضلوالثناء.

–ونجد كذلك نموذجا أخر للشاعر أب الغول الطّهوي:

فدت نفسيوما ملكت بيمني فوارس صدّقت فيهم ضنوني

فوارس لايملّون المنـــــــايا إذا أدارت رحل أحربالزبون

ولا يحزون من حسن بسئ ولا يجزون من غلط بلين[3]

–ومن خلال دراستنا لهذه الأبيات نجدها تحى لنا أن المعنى يعرض للعقل الصحيح معاني واضحة ولقوله فدت نفسي جمله دعائية معناه أفدي بنفسي وجميع ما أملك . والمعنى أنهم يجزن كل بفعله.

2– جزالة اللفظ واستقامته:فعيار اللفظ والطبع والرّواية الاستعمال فما سلم مما يهجنه، فهذا المعيار هنا نجده يقابل العيار الأول وأن هناك تشابه فيما بينهما، لأن اللفظ مقسوم على رتب المعاني أما استقامة اللفظ تخص الوظيفة ليكون لفظا سهلا وواضح المعنى [4]

–وهنا نستدل بنموذج شعري إذ يقول قطري بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك ولن تراعي

فإنك لو سألت بقاء يوما على الأجل الذي لك لم تطاعي

فصبرا في مجال الموت صبرًا فما نيل الخلد بمستطاع[5]

---

[3]-أبو تمام، ديوان، الحماسة، ص: 37.

[4]-محمد الطاهر بن عاشور، شرح المقدمة الأدبية لشرح المرزوقي على ديوان الحماسة لأبو تمام، تحقيق ياسر المطيري، الرياض، مكتبة دار المنهاج ط1، 1696م – 1393هـ، ص : 20.

5– ابو تمام ، ديوان الحماسة ، ص 36.

–اعتمد الثناء في كتابة هذه الأبيات على صيغة اللفظ وقوته وجزالته وذلك باستعماله للأسلوب السهل من أجل وضوح المعنى لأن هناك تشابه وتشابك في الأبيات ومعنى هذه الابياتأن الشاعر يقول للنفس والشعاع المفترق بمعنى المبالغة في الفزع وتشجيع نفسه لتأكد الأبيات لجزالة ألفاظها وأفكارها وتوخي معانيها .

– ونجد كذلك نموذج أخر :

إنّا محبوك ياسلمى فحيينا وإن سقيت كرام الناس فاستقنا[6]

وإن دعوت إلىجلي ومكرمة يوما سراه كرام الناس فادعينا

في هذه الأبيات نجد قوة اللفظ وذلك من خلال تكراره لكلمة كرام الناس وهذا التأكيد للفظ والمعنى هنا أن الشاعر يدعي بغاية عامة للناس بتحية السلام .

–وقال السمؤال بن عديا :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضميا فليس إلى حسن الثناء سبيل[7]

نجد في هذه الأبيات قوة لسبك الألفاظ وذلك من خلال قول الشاعر في كلمتي "جميل وسبيل " فقد اعتمد الشاعر وإقتناء الألفاظ الجميلة لاستقامة اللفظ

3– عيار الإصابة في الوصف :

عيار الذكاء وحسن التمييز، فما وجدناه صادقا في العلوق مما نجا في اللّصوق . يتعسر عنه والتبرّو منه فذلك سمي الإصابة فيه[8].

–وهو الشئ الذي يصف به .

–وهذاما تراه في ديوان بن زيابة التميمي يتصف بالفروسية للرمح .

وهذا نموذج من شعره :

---

[6]– ابو تمام، ديوان الحماسة ، ص: 33.

[7]- المصدر نفسه، ص:21، 22.

[8] –محمد الطاهر بن عاشور، شرح المقدمة الأدبية، ص: 36.

الرمح لا إملاء كفئ به واللّبد لا لأتبع تزاوله

والدّرع لا أبغي بيه ثروة بكل امرئ مستودع ماله

إنك ياعمرو وترك الندى كالعبد إذْ قيد أجماله

أليت لا أدفن قتلاكم فدخنّوا المرْء وسربالهِ[9]

–من خلال هذه الأبيات نجد أن الشاعر اعتمد في كتابة قصيدته على غرض الوصف وذلك من خلال وصف نفسه بالفروسية خلال معاملته بالرمح والسيف وما يدل على هذا في السطر الأول من البيت الأول والرمح لا إملاء كفئ به .

قال ربيعة بن مفروم الضبي :

وقدشهدت الخيل يوم طرادها سليم أو ضفة القوائم هيكل

فدعوا نزال فكنت أل نازل وعلام أركبه إذا لم ألمني [10]

من خلال معنى هذه الأبيات نجد أن الشاعر قد وصف أرجل الفرس على أنها هيكل عظيم .

4–المقاربة في التشبيه :

تسمى الفطنة وحسن التقدير فأصدقه مالا ينتقض عند العكس، وهذه تمتاز بالفطنة وحسن التقدير لأنه مقارنة بين شيئين، وتشابه فيما بينهما.[11]

وهنا استدل بنموذج من الشعر لأحد الشعراء :

علونا إلى خير الظهور حطنا لوقت إلى خير البطون نزول

فنحن كماء المزن مافي نصابها كهام ولا فينا يعد بخيل[12]

اعتمد الشاعر في كتابة قصيدته على المقاربة في التشبيه وذلك من خلال مقاربته وتشبيهه بين شيئين وهذا مادل في البيتين .صفاء أنسابهم بنقاوة ماء المزن أي ماء المطر .

قال أخر :

لا أكتم الأسرار لكن أنمها ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي

[9]-أبو تمام، ديوان الحماسة، ص: 20 – 36.

[10] – المصدر نفسه، ص: 20 – 36.

[11] –محمد الطاهر بن عاشور، شرح المقدمة الأدبية، ص: 36.

[12]– أبو تمام، ديوان الحماسة ، ص: 25.

وإن قليل العقل من بات ليلة تقلبه الأسرار جنبا إلى جنب[13]

ومعنى البيتين هنا أن هناك تشبيه من خلال عدم كتم الأسرار واقتناءهابمعى أفشي الأسرار ولا أدعها مكتومة وقارب بمشابه بالأسرار بالقدر على النار .

5–التحام أجزاء النظم التئامها على تخيير لذيذ الوزن :

وهذا المعيار كما يرى المرزوقي بالطبع اللسان فقد يكون في دلالتها على التدبر والملائمة في الموافقة لأنها تعيد النظم في الأشياء بما يترتب عليها الوزن والقافية فذلك يوشك أن تكون القصيدة منه كالبيت، والبيت كالكلمة تشابه لأجزائه وتقاربها[14] . في قول الشاعرة

إن أباك زهزق دقيق

لا حسن الوجه لا عتيق

تضحك من طرطبه العنوق[15]

اعتمدت الشاعرة في هذه الأبيات على وحدة الموضوع بوحدة القافية والمراد منها وأن الوزن موحد لأن الأبيات مشابكه مرتبة على عنصر واحد . من خلال حرف الروي (القاف) في كلمتي : "عتيق والعنوق " وما يقصد بـ الطرطب صوت الراعي .

–وقال آخر :

لوسمعت صوته قلت هذا صوت فرخ في عشه مزقوق

أو تأملت رأسه قلت هذا حجرا من حجارة المنجنيق [16]

ونجد من هذه الأبيات وحدة الموضوع وتلاحم الأفكار ذلك من خلال اعتماد الشاعر على نفس القافية والوزن ماجعل نظم القصيدة متلاحمة في كلمة مزقوق المنجنيق وكلمة المنجنيق يقصد بها آلة كان يتخذها العرب في الحرب للقلاع والحصون .

[13]– المصدر نفسه، ص: 320.

[14]–محمد الطاهر بن عاشور، شرح المقدمة الأدبية، ص: 36.

[15]– أبو تمام، ديوان الحماسة، ص: 325.

[16]– المصدر نفسه، ص: 333.

6–عيار مناسبة المستعار منه للمستعار له :

وهذا العيار ندرس فيه الاستعارة بحيث أنها الحقيقة والشيء يكشف من خلاله المجاز وهنا نجدها في الذهن الفطنة لأنها تشبه عيار مقاربة التشبيه في ذلك[17]

قال جد الطرفة بن العبد :

والكرّ بعد الفرّ إذْ كره التقدم والنطاح

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح[18]

في هذه الأبيات اعتمد الشاعر على أسلوب غير مباشر وذلك من خلال استعماله للإشارة وهنا تجلت في البيت الثاني معناه أن الحرب كشفت لهم عن ساقها هذه الاستعارة عن اشتداد الأمر .

قال آخر :

بل لو رأتني أختُ جيراننا إذا أنا في الدّار كأني حمار .

ومن خلال هذا اعِتمد الشاعر على أسلوب غير مباشر معتمد فيه الاستعارة وهذا في عبارة "كأني حمار " ، وهذه الاستعارة ذكر نفسه بأنه حمار وحذف المستعار له وهو نفسه ، وهنا يؤكد لنا على بيان قوة المعنى بأن الحمار في البلاد وليس في القوة[19] .

7– عيار مشكلة اللفظ المعنى :

وهذا المعيار يكون بشدة اقتضائها للقافية بطولها ودامها فالقافية يجب أن تكون كالموعود المنتظر يشوقها المعنى [20] .فتكون ألفاظها سهلة وبسيطة .

17–محمد الطاهر بن عاشور، شرح المقدمة الأدبية، ص: 37 .

18–أبو تمام، ديوان الحماسة، ص: 138.

19– المصدر نفسه، ص: 82 .

20–محمد الطاهر بن عاشور، شرح المقدمة الأدبية، ص: 37 .

كقول الشميذرالحاريثي :

بني عمتا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء العضم القوافيا

فلسنا عمن كنتم تصيبون سلّه فتقبل ضيها أ نحكم قاضيا

ولكّن حكم السيف فيكم مسلط فترضى إذا ما أصبح السيف راضيا [21]

اعتمد الشاعر على نفس القافية من أول القصيدة إلى آخرها وذلك من خلال حرف الروي (الياء) اتصاله بألف المد وذالك من خلال تركيب الألفاظوإجادة المعاني

وقال المتنبي :

رأيت الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم في محال[22] .

استدل على حدة القافية في البيت وذلك من خلال حرف الروي (الألف) من أجل تركيب وتناسب الأفكار ترابطها بتركب القافية .حيث كلمة (محال) هي قافية البيت ، مغتصبة لأجل الروي .

– وهذه الأبواب التي اعتمدهاالمرزوقي هي عبارة عن مجموعة تقاليد شعرية لبناء صورة مكتملة ذات معنى واضح لديوان بتليد الصنعة الشعرية لعمد الشعر اتساع ألفاظه معانيه فلم نجد منهم من أفصح مقومات هذا والوفاء الذي استعمله دون غمض أو حشو لبيان فصيح اللسان ونجيح البرهان لأن الألفاظ مقسومة على الرتب والمعاني بأن عمود الشعر هوالأسلوب الذي يسلكه بفحول الشعراء لأن أبو تمام يمتاز بإجادة الفصاحة اللفظية من شرائط الإجادة لأنه امتاز بالناحية المعنوية[23]

21أبو تمام، ديوان الحماسة، ص:11.

22المصدر نفسه ,ص:74.

23 محمد بن مرسي الحارثين، عمود الشعر العربي ، ط1417،1 – 1996، ص: 32 – 251.

المحاضرة السابعة :قصيدة المديح في الشعر العربي القديم

مفهوم المديح في اللغة والاصطلاح.

1– المديح في اللغة: جاء في (لسان العرب) "لابن منظور" (المدح نقيض الهجاء، وهو حسن الثناء.

يقال: مَدَحْتُهُ مِدْحَةً واحدة، ومَدَحَهُ يَمْدَحُهُ، مَدْحًا ومِدْحَةً. هذا قول بعضهم، والصحيح أن المِدْحَ المصدر والمِدْحَةُ الإسم، والجمع مِدَحٌ، وهو المديحُ والأماديحُ.

قال أبو ذؤيب: لَوْ كَانَ مِدْحَةُ حيٍّ مُنْشِراً أحداً أحْيَى أبَاكُنَّ يا لَيلَى الأَمَادِيح والمدائح جمع المديح من الشعر الذي مُدِحَ به كالمدحة والأمدوحة، ورجل مادحٌ من قوم مُدَّحٍ ومديح وممدوح).[1]

وجاء في (أساس البلاغة) للزمخشري:

(مدح: مدحه وامتدحه وممتدح وممدح، يمدح بكل لسان والعرب تتمدح بالسخاء.

وهو يمتدح إلى الناس أي يطلب مدحهم، وعندي مدح حسن ومديح ومدائح ومدح وممدحة وأمدوحة وأماديح).[2]

2– المدح اصطلاحا: (هو تعداد الجميل المزايا، ووصف للشمائل الكريمة وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا).[3]

والمدح من الأغراض الشعرية الأساسية التي تناولها القصيدة العربية: (إن القصيدة العربية تناولت أغراض أربعة وهي: المدح والهجاء والحكمة واللهو، ثم يتفرع من كل صنف منها فروع له، فيكون من المدح المراثي والافتخار والشكل واللطف في المسألة، ويكون من الهجاء الذم والعتب، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ وماشا كل ذلك من نوعه، ويكون من اللهو والطرد وصفة الخمر والمجون وما أشبه ذلك وقاربه).[4] على حد تعبير "قدامة بن جعفر".

إلا أنّ الناقد العربي الحديث "محمد غنيمي هلال" يقصر القول في أغراض الشعر العربي القديم على جنسين من الأجناس الأدبية وهما: المدح والهجاء.

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مادة م.د.ج، ص2/452.
[2]- الزمخشري (محمود بن عمر): أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، طبع دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص324.
[3]- جبور عبد النور: المعجم الأدبي، طبع دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص245.
[4]- قدامة بن جعفر: نقد النثر، طبعة القاهرة، 1938م، ص81.

خصائص شعر المديح: خصائص وأنواع المدح في الشعر العربي القديم.

أولا: خصائص المدح.[1]

من أهم مميزات المديح النبوي أنه شعر ديني ينطلق من رؤية إسلامية تطبعه الروحانية الصوفية من خلال التركيز على الحقيقة المحمدية التي تتجلى في السيادة والأفضلية باعتبار سيد الكون والمخلوقات، وأنه أفضل البشر خلقا ويتميز المديح النبوي أيضا بالصدق في المشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان وحب النبي محمد بن عبد الله طمعا في شفاعته ووساطته يوم الحساب.

خصائص المديح النبوي مضمونا:

من أهم مميزات النبوي مضمونا:

– شعر ديني ينطلق من رؤية إسلامية، ويهدف إلى تغيير العالم المعاش وتجاوز الوعي السائد نحو وعي ممكن يقوم على المرجعية السلفية بالمفهوم الإيجابي.

– كما أن هذا الشعر تطبعه الروحانية الصوفية من خلال التركيز على الحقيقة المحمدية التي تنجلي في السيادة والأفضلية والنورانية، ويعني هذا أن المديح النبوي يشيد الرسول ρ باعتباره سيد الكون والمخلوقات، وأنه أفضل البشر خلقا، وهو كذلك كائن نوراني في عصمته ودماثة أخلاقه وعليه وسلم في قصيدة النبوية يتخذ أبعاد روحانية وجدانية صوفيه.

– يلاحظ على الغزل الموجود في كثير من القصائد النبوية أو المولدية أنه غزل يتجاور النطاق الحسي الملموس إلى ما هو مجازي وإيحائي، أي ينتقل هذا الغزل من النطاق البشري إلى نطاق الحضرة الربانية.

– ويسافر شعر المديح النبوي في ركاب الدعوة المحمدية وشعر الفتوحات الإسلامية ليعانق التيارات السياسية والحزبية فيتأثر بالشيع تارة والتصوف تارة أخرى. ولن يجد هذا الشعر استقراره إلا مع شعراء القرن التاسع الهجري مع البوصيري وابن دقيق العيد، بيد أن شعر المديح النبوي سيرتبط في المغرب بعيد المولد النبوي وشعر الملحون والطرب الأندلسي ليصبح في العصر الحديث شعرا مقترنا بالمعارضة في غالب الأحيان.

[1]- الدكتور زكي مبارك، المدائح النبوية في الأدب العربي، منشورات المكتبة العصرية، ط1، ص17.

– وعلى أي حال، يتميز المديح النبوي بصدق المشاعر ونبل الأحاسيس ورقة الوجدان وحب الرسول ρ طمعا في شفاعته ووساطته يوم الحساب، وصاحب الرسول في القصيدة المدحية إلا مسلك للتعبير عن حب الأماكن المقدسة والشوق العارم إلى زيارة قبر الرسول ρ والوقوف على جبل عرفات والإنتشاء بكل الأفضية التي زارها الحبيب أثناء مواسم العمرة والحج.

– خصائص المديح النبوي شكلا:

– تستند أغلب قصائد المديح النبوي إلى القصيدة العمودية القائمة على نظام الشطرين ووحدة الروي والقافية واعتماد التصريع والتقفية في المطلع الأول من القصيدة.

– وتتمم القصائد النبوية والمولودية الحديثة ذات النمط الكلاسيكي أو التراثي بتعدد الأغراض والمواضيع على غرار الشعر العربي القديم والسبب في هذا التعدد هو معارضة القصائد الأصلية كقصائد البوصيري وقصائد ابن الفارض وقصيدة كعب بن زهير وغيرها وهذه المعارضة تدفع الشاعر إلى إنتهاج نفس البناء والسير على نفس الإيقاع والروي والقافية واستخدام نفس الألفاظ والأغراض الشعرية.[1]

ومن ثم، فالقصيدة النبوية تتكون على مستوى البناء من المقدمة الغزلية ووصف الم.....ومدح الرسول ρوالتصلية والدعاء والاستغفار والتوبة، وهذا ما أفقد المديح النبوي الوحدة الموضوعية والعضوية على الرغم من وجود الإتساق اللغوي على مستوى السطح الظاهري والإنسجام على مستوى العمق الدلالي.

– وفيها يخص الإيقاع الخارجي، تعتمد قصائد المديح النبوي على البحور الطويلة الجادة التي تتناسب مع الأغراض الجليلة الهامة كالمديح النبوي والتصوف الروحاني والتشيع لآل البيت، لذلك يستعمل شعراء المديح النبوي البحر الطويل والبحر البسيط والبحر الكامل والبحر الوافر والبحر الخفيف، يبعد البحر البسيط من أهم البحور المفضلة لدى الشعراء المديح النبوي ولدى شعراء المديح المعارضة ومن المعلوم أن البردة التي نظمها الشاعر البوصيري كانت على البحر البسيط، لذلك أصبحت هذه

[1]- الدكتور زكي مبارك، المرجع السابق، ص17-18.

القصيدة نموذجا يقتدى به في الشعر العربي الحديث من قبل شعراء المديح النبوي موضوعا وايقاعا وصياغة.

– ومن أهم القوافي التي استعملت كثيرا في الشعر النبوي الميم واللام والهمزة والجيم، وهي قوافي صالحة وضعية لرصد التجربة الشعرية المولودية أو النبوية أو الصوفية الروحانية ماعدا قافية الجيم التي تثير جرسا خشنا ونشاز شاعريا.

– وعلى مستوى الإيقاع الداخلي، شاعر المديح النبوي يستعمل بكثرة ظاهرة التصريع والتوازي الصوتي والتكرار الإيقاعي والجمع بين الأصوات المهموسة والأصوات المجهورة، وينسجم هذا الإيقاع الشعري بكامل مع الجو الموسيقي والنفسي والدلالي للقصائد المدحية.[1]

– وتمتع اللغة الشعرية ألفاظها المعجمية في قصيدة المديح النبوي من حقل الدين وحقل الذات وحقل العاطفة وحقل الطبيعة والمكان وحقل التصوف، كما يمتاز المعجم الشعري بالجزالة وفخامة الكلمات وقوة البنك ورصانة الصياغة وهيمنة المعجم التراثي وغلبة الألفاظ الغريبة غير المألوفة لذلك يغلب الجانب التراثي والبيان السلفي على هذا الشعر الديني كاتبة وتعبيرا وصياغة.

– ويستخدم هذا الشاعر المادح لرسول ρ الجمل الفعلية الدالة على التوتر والحركية والحمل الإسمية الدالة على الإثبات والتأكيد، ونجد كذلك المزاوجة بين الأساليب الخبرية والإنشائية قصد الوظيفة الشعرية بمكوناتها الإيحائية والمجازية، وغالبا ما يستوجب مكون السيرة وسرد المغزياتالأسلوب الخبري، بينما يقترض تدخل الذات واظهار المشاعرانشا...إلى آخر حسب السياقات المتصدية والوظيفية.

– يشتغل شعر المديح النبوي الصور الشعرية الحسية القا..... على المشابهة من خلال استخدام التشبيه والاستعارة، والاستعانة بالصورة المجاوزة عبر المزح بين المجاز المرسل والكناية الاحالية في التصوير والبيان ويمكن أن تتخذ الصورة البلاغية ذات النطاق الحسي طابعا رمزيا خاصة في المقاطيع الصوفية العرفانية ويتراوح البديع في المديح النبوي بين العفوية المطبوعة والتصنع الزخرفي في القصائد المدحية البديعية التي نظمت في العصور المتأخرة كما عند ابن جابر الأندلسي في ميمته البديعية.

[1]- صلاح الدين هواري، وواقع الأدب العربي، عصر جاهلي، إسلامي، أموي عباسي، منشورات دار الهلال، ص142.

– وينتقل الشاعر تداوليا في قصائده المدحية من ضمير المتكلم الدال على انفعالية الذات والانسياق وراء المناجاة الربانية والاستعطاف الذاتي إلى ضمير المخاطب أو الغياب للتركيز على الممدوح وصفا وإشادة وتعظيما.

المطلب .....: أنواع المديح.

تختلف أنواع المديح باختلاف الممدوحين، ونستطيع أن نميز بين هذه الأنواع أو الألوان كما يحلو للبعض أن يسميها:

– المديح النبوي: وهو الذي يمدح فيه النبي ρ والدين الإسلامي.

– مديح الملوك والخلفاء.

– مديح الأمراء والوزراء والوجهاء.

– مديح العلماء والأدباء.

– مديح الأوطان والبلدان.[1]

[1]- صلاح الدين الهواري، المرجع السابق، ص144.

المحاضرة الثامنة :رثاء المدن والممالك

يعد رثاء المدن والممالك أكثر فنون الشعر قولا وصدقا وأصالة، حيث توجد الدوافع النفسية وراء إنشاءه، وكذلك وفرة التجارب والأحداث المتلاحقة على أرض الاندلس والمؤثرات الداخلية والخارجية التي أثرت في عواطف الشعراء وهذا الفن خاص بالأندلس رغم أن له صدورا في المشرق، ولكنها لم تأتي في روعة الشعر الأندلسي ، والرثاء ينحصر في نظرنا في رثاء المدن والآخر في رثاء الممالك الزائلة، وكلا النوعين يتسم بالصدق الفني والعاطفة القوية والعبارات الحزينة والألفاظ الباكية والصور الشجية ، ومن ثم فقد كان هذا الفن على درجة كبيرة من الشهرة والذيوع يقول غومس" إلى وقد أدركت طائفة من المراثي السياسية شهرة واسعة في الأدب الاندلسي وقد قبلت هذه المراثي في مناسبات زوال الدول مثل : رائية ابن عبدون في زوال ملك نين الأفطس أصحاب بطلبوس أو بمناسبة ضياع بلد كبيرمن بلاد المسلمين، من هنا تبرز أن كالآباء والأبناء والزوجات أو الرثاء الرسمي الذي يكون في رثاء أرباب الدول من هنا نتطرق إلى الاجابة على الاشكالية التي تقول ما المقصود برثاء المدن والممالك وماهي أشهر قصائد الرثاء ومن هم أبرز الشعراء الذين تضمنوا شعر الرثاء.

1–الرثاء لغة: الرثاء في اللغة يعني البكاء على الميت ومدحه بعد موته، وقد ورد تعريف الرثاء عند ابن منظور وغيره من أصحاب المعاجم وجميعهم يحومون حول المعنى المتعارف عليه للرثاء وهو البكاء على الميت وذكر محاسنه ورثى فلان فلانا" إذا ... بعد موته ورثوت" [1] الميت ايضا إذا بكيته وعددت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعرا والرثاء عند الخليل[2] يعني البكاء على الميت ومدحه ، **أما المعنى الاصطلاحي للرثاء**" [3]فقد جاء عند عدد من الادباء والنقاد ومنهم السويسري الذي رأى أن المراثي جعلت تسلية لمن عضته النوائب بأنيابها وفرقت الحوادث بين نفسه وأحباءها وتأسيس لمن سبق إلى هذا المصرع، أما المبرد فقد حصر الرثاء في الشعرية [4]والعزاءهو السلو

[1]إبن منظور بن مكرابة علي (ت 811هـ/ 1311م) لسان العرب ط1 دار صادر للطباعة والنشر/ بيروت

[2]الخليل أحمد، (ت 180– 836)كتاب العين 1980، تحقيق مهدي الخوارزمي وابراهيم السامرائي

[3]النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 832– 1323م) تحقيق يحي الشامي.

[4]المبرد أبو العباس محمد بن يزيد (286– 686م) (286– 686م) التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا والحكم ، تقديم وتحقيق: محمد ابراهيم الجمل، دار النهضة مصر للطباعة والتوزيع والنشر، ص 45.

وحسن الصبر على المصائب وأحسن الشعر عنده " ما خلق مدحا بتفجع واشتكاء بفضيلة لأنه يجمع التوجع الموجع والمدح البارع إعتذارا من افراط التفجع باستحقاق المرثي فإذا وقع نظم ذلك بكلام صحيح ولهج معربة ونظم غير متفاوتة فهو الغاية من كلام المخلوقين".

رثاء الدول والمماليك: نجد دارس الادب العربي رثاء المدن من أهم الموضوعات الشعرية المماثلة في ثناياه متضمنا آثار التقلبات السياسية التي اجتاحت عصوره المتباينة إلا أننا لا نجد أثرا واضحا لهذا النوع من الرثاء عند الجاهليين بالرغم من أهميته وذلك أنهم كانوا يعتمدون حياتهم على التنقل من مكان لآخر تحثا عن الغذاء والماء فالاستقرار كما هو معروف ليس من سمات المجتمع العربي الجاهلي فلم يكن الشاعر الجاهلي مدن يبكي عليها فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى مكان طلبا للمرعى وسعيا وراء العيش ما يراه في الحضر عما خلقه في البلدية من ... وقيام واصحاب[1]، وقد برز رثاء المدن بشكل جلي في الشعر العربي المشرقي عندما حل الخراب بحضارة الدولة العباسية " بغداد" وبرز الخريمي[2]راثيا لها مصورا نكبها ومائل بها اثر الفتنة التي حدثت بين الأمين والمأمون ، ابني هارون الرشيد ومما قاله أبو يعقوب الخريمي في ذلك[3] :

يا بؤس بغداد دار مملة دارت على أهلها دوائرها

أمهلها الله ثم عاقبها لما احاطت بها كبريائها

ولكن هذا اللون من الرثاء لم يزدهر في المشرق ازدهارا في الاندلس ويعزي ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الاندلس كانت أشد مدة واسرع ايقاعا وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حين اراد الصليبيون طرد المسلمين واخراجهم من الاندلس يضاف إلى ذلك أن الشعر الاندلسي تميز بالنضج والتي استمرت عند الاندلسيين في حين نجد أن شعراء المشرق يعرضون لهذا الفرض أي رثاء المدن فالتفوق حاصل كما وكيفا فالأندلسيون استطاعوا ان يجعلوه اتجاها قائما بنفسه

[1]البيومي، محمد رجب ، رثاء المدن بين الأندلس والمشاركة، مجلة الأديب مايو 1965.

[2]الخريمي اسحاق بن حسان ابا يعقوب بن القيم، ص 589– 582

[3]ابن قتيدة أبومحمد عبد الله بن مسلم الدنيوري (ت 286 الشعر والشعراء) دار الكتب العلمية ص 580.

وبابا من أبواب الشعر أبدعوا فيه القول واجادوا فيه الصباغة [1] وللبيئة الاندلسية ايضا دورا كبيرا في ارتباط الاندلسي في بيئته الخلابة التي تمتاز بجمال الطبيعة والضلال الوارثة والينابيع المتدفقة والخضرة الدائمة فلم يكن امام الشاعر وهو يراها .....إلا أن تجود ....الشعرية بما يعاكس صدق انتمائه إلى بلده ، وحبه لها وما اصدق الرصافي البنلي وهو يملل فيه لبلاده بقوله: [2]

بلادي التي ريشت فو بدمي بها فريقا وكوتني قراراتها وكرا

مبادئ لين العيش في ريق الصين أني الله أن انسى لها اندا ذكرا

رثاء المدن:ارتبط الشاعر الأندلسي بمدينته ارتباطا وثيقا جعله يكسب وطنه ويدافع عنه بلسان غضب وبيان قوي ومنطق سهل يصور فيه الانتصارات، وينحب فيه الانكسارات إذا ما فقدت الامه أدوات الدفاع عن نفسها كالوحدة والدين والتعاضد وغيرها مما تحتاج إليه لتكون حصيدة مشبعة مهاية الجانب لا تطلب الرحمة من المتجبر ولا تحتكم إلى العدو الظالم وكما بينت سابقا أن شعر رثاء المدن والممالك تطور في الاندلس تطورا ملحوظا فظهر بحلة جديدة جعلتنا نحكم على أولئك الشعراء شديدو الارتباط بمدنهم، محبون لها، غير راضيين عن السياسات التي كانت وراء ضياع كثير من مدن الأندلس لذلك صور الشعراء التدمير والتخريب الذي لحقه الأعداء بالحذافير الاسلامية في الاندلس غالبا ما كان في موقف الاستنجاد والرثاء لعلهم بذلك يثيرون الهمم ويحركون العزائم ويلهبون المشاعر [3]وتعد ....[4]من اهم المدن الاندلسية التي تقلب عليها الروم وعاثوا فيها فسادا فأسرقوها عند خروجهم منها سنة 1495 فكان ذلك أثر في نفس الشاعر الأندلسي أبي اسحاق ابراهيم في ذلك[5]

[1] سطاني الجيلالي، اتجاهات الشعر في عصر المرابطين فالمغرب والاندلس 1987 ، جامعة دمشق

[2] الرصافي البنلسي، الديوان، ص 69.

[3] الرقب ، شفيق محمد شعر الجهاد ل عصر الموحديين 1984، مكتبة الاقصى: عمان ، ص 144.

[4] بلنسبة: تقع في شرق الاندلس وهي مدينة سهلية وقاعدة بين قوايد الاندلس في مستو من الارض ،عاهدة قطر كثيرة التجارات وهي على نهر جار ينتفع به الناس لها

[5] الحميري: صفة جزيرة الاندلس، ص48.

قصائد في رثاء الأندلس يعكس رثاء المدن بالأندلس بجهاد نفس وكفاح أمة بفترة زمنية امتدادها يزيد عن ثمانية قرون وقع بها الكثير من الأحداث التاريخية الهامة مثل عبور المسلمين والعرب مضيق جبل طارق ثم خروجهم من غرناطة كآخر ممالكها لذلك تم كتابة الكثير من القصائد على يد الشعراء الذين ذاقوا مرارة تلك الأحداث فتشكلت بواسطتهم الدواوين والقصائد التي تم تصنيفها من مراثي .... الشعر الغربي على مر العصور [1]

ولعل من أشهر تلك القصائد قصيدة أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس التي تحمل عنوانا لكل شيء إذا ما تم نقصان، والتي قام بكفايتها الشاعر (صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف الرندي الأندلسي)،وقد كان يكنى بأبي البقاء والذي ولد عام 1204م، بمدينة رندة في الأندلس ، ذاع صيته عقب ما قام بكتاباته قصيدة شهيرة التي قم من خلالها برثاء الأندلس بعدما تهاوت على يد الاسبان مدنها وسقطت واحدة تلو الأخرى وقال بمطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يضر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره الزمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شأنها

ما بال دمعك لا يني مدراره أم ما لقلبك لا يقر قراره

أللوعة بين الصلوع لطاعن سارق ركائبه وشطت داره

أم للشباب تقافقت أوطانه بعد الدنو وأوففقت أوطاره

أم للزمان أنى بخطل فادح من مثل حادثة حلت اعصاره

بحر من الاحزان في غيابه وارتج ما بين الحشار فازة

[1] رثاء المدن والمماليك بالأندلس، 1204.

الأبيات هن تصور إنسان يعيش في بحر من الأحزان مضطربا، كثير البكاء شديد الوحدة والصباية ويبحث عن الخلاص من هذه الحالة إلا أنه لا يعرف لها علة أو سببا [1] ثم بين الشاعر أن بلنسية قد انتقلت من الاسلام إلى الكفر وفي هذا اشارة إلى أن الأعداء قد حولوا المدينة وغيروا ملامحها الاسلامية ولا شك أن قضية التحول من الايمان إلى الكفر تبرز بوضوح رثاء المدن الأندلسية ومن ذلك قول الشاعر مدهول في رثاء طليطلة التي إستولى عليها النصارى سنة 487هـ [2]" فنادت دار الكفر مصطفاة

قد اضطربت بأهليها الأمور

كان للاتجاه الشرقي والأندلسي أثرين في الأدب المغربي فلو يتبعا الثقافتين المشرقية والمغربية في جوهرهما ومظهرهما لما وبدعا فرقا كبيرا الا كما ومدن الفروق اليسيرة في بعض عصور الأدب مثل ظهور بعض النزاعات الاقليمية حسب الظروف البيئية المحليةكما وقع في العصر العباسي الثاني حينما تعددت الأوطان السياسية وأصبح لكل إقليم مشكلاته واهتماماته من هنا نلخص أن تأثر الأدب في هذه الفترة بأدب المشرق وأدب الأندلس لم يفقد شخصيته المغربية وكمالها من مميزات في الوضوح والبساطة والتدين فما وصلنا من شعر رثاء المدن في المغرب العربي هو عبارة عن مطويات فردية أي متوسطة الحجم التي تميز شعر رثاء المدن المغربية القديمة والاشارة إلى العمران والحضارة والمذاهب الدينية واحتلال المدن أو حرقها فهذا كان بدافع الصراعات السياسية والمذهبية أو بسبب حب التوسع على الغير أو لغرض ديني كتوحيد الاسلام أو الدفاع عن الأراضي والممتلكات.

[1] الرقب، شفيق، شعر الجهاد في عصر الموحدين، ص209

[2] إبن الآبار، تحفة القوم، ص214

المحاضرة التاسعة : المدائح النبوية والمولديات في الشعر المغربي

من المناسبات الدينية الطيبة التي يحتفل بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ذكرى المولد النبوي الشريف، وإذا كانت الاحتفالات بهذه المناسبة تتباين وتختلف من قطر إلى آخر فإن القواسم المشتركة والعادات المتشابهة في العديد من البلدان العربية هي قراءة قصائد المديح النبوي وقراءة هادفة لسيرة المصطفى ρ وإذا كانت القصائد التي تمدح الرسول وتذكر خصاله الحميدة ومكارم الأخلاق التي إتصف بها النبي هي أبرز ما يميز مظاهر الإحتفال بهذه الذكرى، وحتى نتمكن من الإمساك بناصية هذا الموضوع فإننا قد خصصنا له ثلاثة مباحث.

مفهوم المدائح النبوية.

مفهوم المديح النبوي.

المديح النبوي هو الشعر الذي ينظمه الشعراء في مدح النبي ρمعددين فيه صفاته الخُلُقِيةِ والخَلْقِيَةِ، وواصفين الشوق لرؤيته وزيارة قبره وغيره من الأمكن المقدسة التي تتصل بحياة الرسول ρ وذاكرين لمختلف معجزاته ومراحل سيرته وأحداثها ومتتبعين لغزواته، وما إلى ذلك وقد يبرز الشاعر المادح في هذا النوع من الشعر تقصيره في أداء واجباته الدينية، ويذكر ذنوبه مناجيا الله بصدق وخوف، مستعطفا إياه طالبا منه التوبة والمغفرة، وينتقل بعد ذلك إلى الرسول ρ متوسلا إليه، طامعا في شفاعته عند الله يوم القيامة، ويتداخل المديح النبوي في الغالب مع قصائد الزهد وقصائد التصوف وذلك لما بينها من علاقة.

وقد عرف الدكتور زكي مبارك ومن أشهر الباحثين في هذا الموضوع، المدائح النبوية بقوله"فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهو لون من العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق الإخلاص".[1]

وهذا المديح لا شبه بينه وبين المدح التكسبي، أو مدح التملق، الذي يوجهه الشعراء المتكسبون بشعرهم إلى السلاطين والأمراء والوزراء وغيرهم، فهذا المدح يوجه إلى أفضل خلق الله – محمد– ρ، ويطبعه الصدق والمحبة والوفاء والإخلاص.

لمحة تاريخية حول نشأة وظهور المدائح النبوية.

ظهر المديح النبوي في الشعر العربي في زمن مبكر، وشاع مع إنطلاق الدعوة الإسلامية وازدهر وتطور إلى أن ارتبط بالشعر الصوفي مع عمر بن الفارض، وغيره، من الشعراء التصوف، ولكنه لم يبرزهما كبيرا ويزهر، ويترك بصماته الإ على الشعراء الذين ظهروا ابتداء من نهاية العصر العباسي، وفي مقدمتهم شاعر المديح النبوي الأكبر

[1]- المدائح النبوية في الأدب العربي منشورات المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ببيروت، ط2، 1935، ص17.

شرف الدين البوصيري الذي عاش في السابع الهجري، وهو صاحب الهمزية والبردة المشهورتين في هذا الفن، وقد سلك مسلكه في هذا المجال عدد من الشعراء فنظموا على منواله مالا يعد من المدائح النبوية.

ولهذا يختلف مؤرخو الأدب في بداية ظهور المديح النبوي، فمنهم من يذهب إلى أنه فن قديم ظهر مع الدعوة الإسلامية، ومنهم من يذهب إلى أنه فن مستحدث لم يظهر إلا في القرن السابع الهجري مع الشاعر شرف الدين البوصيري.[1]

وإذا ضربنا صفحًا عن القول الثاني، أمكن أن نقول: إن أول ما قيل من الشعر في مدح النبي ρ هو ما قاله جده عبد المطلب بن هاشم عندما ولد له، وفي ذلك الشعر يشبه حفيده بالنور الذي أضاء الكون.

ومن النماذج الأولى للمديح النبوي قصيدة "طلع البدر علينا" وقصائد حسان بن ثابت وغيره من شعراء الرسول ρ.

وقد ذهب الشعراء كذلك إلى مدح أهل البيت، وفي مقدمتهم أبناء فاطمة كما فعل الفرزدق والكسيت.[2]

وإذا ألقينا نظرة على تاريخ الأدب المغربي، وجدنا أن الشعراء المغاربة كانوا ينظمون كثيرا من قصائد المديح النبوي لاسيما في ذكرى مولده ρ تلك الذكرى التي كانوا يحتفلون بها كثيراً.[3]

ومن أهم الشعراء المغاربة الذين اشتهروا بالمديح النبوي: "مالك بن المرحل" وله قصيدة ميمية مشهورة يعارض فيها قصيدة البوصيري "البردة" ومنهم "عبد العزيز القشتالي" الذي يقول من قصيدة في مدح الرسول ρ.

محمد خير العالمين بأسرها **** وسيد أهل الأرض من الإنس والجان[4]

المدائح النبوية في الشعر المغربي القديم.

من مدائح أبو حمو الزياني

ترجمة الشاعر:

هو أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن، وهو من أشهر ملوك بني زيان إن لم يكن أشهرهم. كان مولده بغرناطة بالأندلس في عام 723هـ وقد نشأ في تلمسان، متمتعا بحياة الترف، ككثير من الأمراء، وقرأ على أبرز علماء المغرب في عصره، فنال حظًا من العلوم الدينية واللغوية والأدبية.

[1]- الأدب العربي من خلال ظواهره وقضاياه عباس الجراري مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط2، 1982، ص141.
[2]- المرجع نفسه، ص142.
[3]- ينظر: الإطاحة في أخبار غرناطة، للسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله، مكتبة الخالجي، القاهرة،ج3، ط2، 1975، ص 314.
[4]- ينظر: الواقي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، محمد .....، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، 1982م، ج1، ص339.

ولما استولى بني مرين على تلمسان عام 737هـ، غادرها أبو حمو مع كثير من أقاربه، واتجه إلى مدينة فاس، فقضى فيها عدة سنوات من شبابه ثم عاد إلى وطنه وأقام بمدينة ندرومة، حيث تزوج وولدا ابنه، أبو تاشفين خليفته.[1]

ثم رحل إلى تونس سنة 753هـ حيث قضى مدة من الزمن، وكان في هذا الوقت يخطط لاسترجاع ملك أسلافه، وبقي ينتقل في الجنوب جامعاً الأنصار لتحقيق هذا الهدف[2] وفي سنة 760هـ دخل تلمسان فاتحًا، واستولى على كرسي الحكم، فأعاد بذلك عرش أسلافه.

وبفضل ذكائه وشجاعته استطاع أن يحي دولة بني زيان، ويدعم أركانها، ويجعل من مدينة تلمسان مركزا للإشعاع والإقتصادي والحضاري.[3]

وكانت وفاة أبي حمو عام 791هـ.[4]

وقد كان أبو حمو موسى شاعراً مجيدا وكاتبا بارعاً، ومن آثاره العلمية: كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، وفيه عرض آراءه السياسية وكتب كثيرا من قصائده الشعرية ومنها تلك التي نظمها في مدح النبي ρ بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف.[5]

وكان أبو حمو موسى من أكبر شعراء المديح النبوي في الأدب المغربي، وله أكثر من شعر مولديات (قصائد في مدح النبي ρ) وقد اخترت نموذجين من مدائحه النبوية سأعرضها فيما يلي، وأحاول شرحها بإيجاز:

نص القصيدة الأولى:

قال أبو حمو في مدح الرسول ρ:

فشهر ربيع أَتَــى بِرفيعِ نَبِــي شَفِيــع لِمَــنْ أَذْنَبَا
نَبي أتــى رَحْمَــةً لِلعِبَادِ وَأَظْهَــر لِلْحــقِّ نُوراً خَبَـا
ونيـران فـارس أُخْمِـدَتْ فللــه ذَلــكَ مَــا أَعْجَبَــا
وكسْــرى تَســاقط إِيَوانُهُ وَذَاقَ مِنْ الرّعْبِ كَأْسَ الظِبَى
وتَلمِتْ اَلوَحْشُ لِلمُصْطَفَى وتَطقَ الــذّراعُ لَهُ أعــجبهَا
وَحَنَّ لَهُ الجذعُ مُسْتَوْحِشَا وكَلَّمَهُ الــظبيُ مُسْتغْرِبًــا
وَشُقَّ لَهُ البدّرُ عِنْدَ التّمامِ وَرَقَتْ لَهُ الشّمْسُ أَنْ تَغْرُبَــا

[1]- ينظر: أبو حمو موسى الزياني، حياته وآثاره عبد الحميد حاجيات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1982، ص71.
[2]- المرجع السابق، ص153.
[3]- الشبكة العنكبوتية.
[4]- ينظر أبو حمو موسى الزياني عبد الحميد حاجيات، ص154.
[5]- ينظر: تاريخ الأدب الجزائري محمد الطمار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، 1981، ص157.

وَأُسْـري بِهِ لَيلَةَ الإرتقـاءِ إلى قَابَ قَوسَيــــن أو أقْربـا

وَكَمْ مُعْجزَاتٍ بخيرِ الوَرَى تَحارُّ عَنْهَا الوَصْفُ أن تُحْسبا[1]

وقد وصل من شعر أبي حمود إحدى وعشرون قصيدة، نظمها في أغراض مختلفة منها: الفخر والحماسة والرثاء، ومدح النبي ρ.[2]

شرح قصيدة أبي حمو موسى الزياني:

ينوه أبو حمو موسى في هذه القصيدة، بفضل شهر ربيع الأول الشهر الذي ولد فيه خير الخلق محمد ρ ويعدد خصاله الحميدة، ويذكر فضله على الناس، كشفاعته لأمته ورحمته بالعباد، وإظهار للحق بعد ما كان هنا، ثم يعدد المعجزات التي أكدت صحة نبوته كانطفاء نيران فارس، وانهداد إيوان كسرى، وتكلم الوحش له نطق الذراع، وحنين الجذع وانشقاق القمر، ومما إلى ذلك مما هو مذكور في كتب السير النبوية.

نص القصيدة الثانية:

قال أبو حمو في مدح النبي ρ:

يا ليلة الإثنين نورك قد سما وانجابت الظلماء عن أفق السّمَا

وإنهدّ إيوان كسرى عندمـــا خلق النّبيُ الهاشمـــيُ معظمَـــا

في ليلة غر شهر ربيع

والبدرُ شُقَّ بغيْرِ إفتكٍ يُفْتـــري لمحمدِ المختارِ منْ خيرُ الوَرَى

والجذْعُ حَنَّ إليه من غَير أَمتَرَا والمـاءُ نَبَعَ من أَنَامِلِهِ جَـــرَى

من غير مَمْنُونٍ وَلاَ مَمْنُوعٍ

بِهدِي رَسُولِ الله أَمَّتَهُ اهْتَدَتْ بِظُهُورِهِ الأَصنامُ خَرَّتْ وارتَدَتْ

وبنورِهِ نيرانُ فارسِ أُخْمِـدتْ وَدلائلُ بانتْ وآيـاتُ بـــدَتْ

وَشَفاعَةٌ جاءَتْ لكلِ مُطِيعٍ[3]

شرحها:

يتحدث أبو موسى في هذه القصيدة عن ليلة الإثنين ذاكر مالها من فضل فهي الليلة التي انجلى فيها الظلام الذي كان يغشى السماء، وظهر النور ثم يعدد معجزات النبي ρ فيذاكر انهداد إيوان كسرى وخمود نيران

[1]- ينظر: أبو حمو موسى الزياني، عبد الحميد حاجيات، ص72

[2]- المرجع نفسه، ص221.

[3]- المرجع السابق، ص222.

فارس عندما ولد الرسول ρ وانشقاق القمر له وحنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه ρ ثم ينوه بنصائحه وتوجيهاته التي اهتدت بها الأمة فآمنت بالله وتحطمت الأصنام بعد ما ظهرت الدلائل، وحلت شفاعته لأتباعه.

من مدائح ابن الخلوف القسنطيني.

ترجمة الشاعر:

هو الأديب الجزائري أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد شهاب الدين، الحمري المعروف "بابن الخلوف" المولود بمدينة قسنطينة عام 829هـ.[1]

وقد إنتقل مع أبيه إلى مكة المكرمة، وهو ما يزال صبيا، فمكث فيها حوالي أربع سنوات، ثم تحول إلى بيت المقدس، وفي بيت المقدس حفظ القرآن الكريم، وألم بعدة علوم، كالفقه وتفسير القرآن الكريم، وعلوم اللغة، ومن شيوخه: أبو القاسم النويري في الفقه وشهاب الدين أرسلان، وعز الدين المقدسي، وعز الدين بن عبد السلام الذي جلس إليه في اللغة العربية، وغيرهم من علماء مصر وتونس وكانت وفاته عام 899هـ.

وقد خلف ابن الخلوف عدة آثار عملية منها: نظم المغني، ونظم التلخيص "ومواهب البديع في علم البديع"، "وجامع القرآن القريم في صيغ الأفعال" "وعمدة الفرائض" "وتحرير الميزان لتصحيح الأوزان"[2]

ويعد ابن الخلوف من الشعراء المرموقين في المديح النبوي بل إنه فاق كثيراً، منهم من ينظم ديوان كامل في ذلك الغرض سماه : "جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين".

وفيه يمدح الرسول ρ ويصف حنينه إلى البقاع المقدسة، ويصير رغبته الشديدة في زيارتها، ومن قصائده التي صيرت عواطفه الجياشة واحدة يقول في مطلعها:

عليك توكلي ولك افتقاري ومنك تطلبي وبك انتصاري[3]

ومن أجود قصائد ابن مخلوف في مدح النبي ρ قصيدته العينية التي سأعرضها فيما يلي، محاولة شرحها بإيجاز.

نص القصيدة وشرحها:

يقول ابن مخلوف في الجزء الأول من هذه القصيدة مادحًا الرسول ρ :

الفاتح، الهادي، الرسول، المصطفى الخاتم، الماحي، الهمام، الأشجع

القائم، النّاعي، الإمام، المرتضى الصادق، الواقي، الأمين، الأروع

حيث المواهب، غوث ملهوف الحشا بث الكتائب، معقل المتمنع

---

[1]- ينظر دراسات في الأدب العربي القديم، عبد الله حمادي دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، ط3، 1986م، ص146.

[2]- ينظر: ابن خلوف وديوانه، جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين، العربي دحو ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص12.

[3]- الشبكة العنكبوتية، الشوق والحنين إلى البقاع المقدسة في الشعر المغربي الأندلسي الربيع بن سلامة، مكتبة الشعب الأندلسي العالمية، 2009، جامعة منتوري قسنطينة.

راهي الجبين، أزج أبلـــج، أشنـــب عبل الذراع، طويل متن الأصبـع
ضخم الكراديس، أدعج العينين أقنى الأنف رحب الصدر، فخم الأضلع[1]

يعد ابن خلوف في هذه الأبيات بصفات الرسول ρ وأسمائه ويبرز خصاله الحميدة، ومن صفاته الحسنة التي ذكرها: الصدق، والوفاء، والأمانة، الشجاعة، وعلو الهمة، وحسن الإمامة ثم يصف جسده ρ فيذكر جبينه، وذراعه وأصابعه وعينيه وأنفه وصدره وأضلعه وغيرها ثم يقول في الجزء الثاني:

البدر شق لقريـة بتشـــوق والجذع حن لبـعده بتفجـــع
والشاة أنباء الـذراع بسمهـا والنصب خاطبه بحق مصـدع
والغيم ظللـه ودان لأمـــره دعـاه الغيـــوث الهمـــع
والصخر لأن له وحيته الربا وأتت لنصرته الصـــبا بتسرع[2]

وفي هذه الأبيات يعدد ابن مخلوف معجزات النبي ρ فيذكر منها: إنشقاق القمر له، وحنين الجذع إليه، وتنبيه ذراع الشاة المسمومة له، وتكليم الضب وتصديقه لرسالته، وإظلال الغيمة له من الحرّ الشديد.

الخصائص الفنية للقصيدة:

1– خطة بناء القصيدة:

كان الشعراء يستهلون القصيدة النبوية بمقدمة غزلية صوفيه، ويصفون فيها حنينهم إلى رؤية المصطفى ρ وشوقهم إلى زيارة البقاع المقدسة، كالحرم الشريف وغيره، ثم يصفون المطية ورحال المواكب المتواجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج وزيارة مكة حيث بيت الله الحرام والمدينة حيث قبر النبي ρ.[3]

ومن الأمثلة على الاستهلال بالمقدمات الغزلية قول أبي حمو موسى الزياني في بداية إحدى مولدياته:

ومزق صبري من بعدهم فما البيض ما السمر أو الظبي؟[4]

كما استهل بعض الشعراء مدائحهم النبوية بمقدمات طللية، ومن الأمثلة على ذلك قول أبي حمو موسى الزياني:

فما خبراني عن رسوم نواهـــج وعن معلمات طيبات الأرائـج
ومن أرض نجد والعذيب وبارق ولا تخبراني عن ذوات الدمالج[5].

ويختم الشعراء مدائحهم النبوية في الغالب بالتوجه إلى الله أو إلى الرسول ρ طلبا لشفاعته يوم القيامة ثم الصلاة والسلام على الرسول الكريم، وبالدعاء والتوسل لقضاء الحاجات ومن الأمثلة على هذا قول ابن خلوف القسنطيني في نهاية قصيدة له:

---

[11]- ابن مخلوف وديوانه "جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين"، ص91.
[2]- ابن مخلوف وديوانه "جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين"، ص92.
[3]- ينظر التصوف في المغرب الأوسط خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الطاهر يولكي، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص49.
[4]- أبو حمو الزياني، حياته وآثاره، عبد الحميد حاجيات، ص375.
[5]- المرجع السابق، ص376.

وظل على الأملاك والرسل كلهم وآل التقى ما جانب الحل محرم[1]

2– اللغة:

يلاحظ المتتبع لمعجم المدائح النبوية، أن شعراءها قد تأثروا بالمعجم الديني، ولا سيما لغة القرآن الكريم، فاستخدموا كثيرا من ألفاظه وعباراته، ومن الأمثلة على ذلك ما في قول ابن خلوف القسنطيني:

أضلني بثناياه من عجب فالنجوم بها ترجى الهدايات[2]

ففي هذا البيت تناص مع الآية الكريمة ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾[3]

وقد جاءت ألفاظ المدائح النبوية التي نظمها شعراء المغرب مألوفة بعيدة عن الغرابة وجاءت التراكيب متينة السبك، محكمة النسخ ومن الأمثلة على ذلك ماجاء في قول ابن خبّازة:

رسول يراه الله من صفو نوره ألبسه بُرْداً من النور ضافيا[4]

كما وظف الشعراء بعض الكلمات والرموز الموحية ومن الأمثلة على ذلك ما في قولأبي حمو موسى الزياني:

وياحاديا يحدوا الركاب إليهم أنخ بربى نجد وسلم[5]

3– الصور البيانية:

إستخدم شعراء المديح النبوي عدة صور بيانية وضّحوا بها أفكارهم وجلوا عواطفهم ومنها ما يلي:

أ– التشبيه: ومن الأمثلة عليه قول أبي حمو موسى الزياني:

في زورة تمحو له ما قد أسا والقلب منتظر بذوب له أسى

ب– الكناية: ومن الأمثلة ما في قول أبي حمو موسى الزياني:

وساروا ودموعي تقعدني فقرعت السن من الندم

حيث كَنّى عن ندمه بقوله قرعت السن وقد أكدت هذه الكناية شدة الندم الشاعر على بقائه وعدم مصاحبته للذّاهبين إلى بيت الله لأداء فريضة الحج والقيام بسنة زيارة المدينة.

ومن تلك الأمثلة ما في قول ابن الخلوف القسنطيني:

حمى بيضة الإسلام في جذع عشها ولم يسلم الذني غيلا ولا حمى

4– المحسنات البديعية:

استخدم الشعراء كثيرا من المحسنات البديعية في قصائدهم النبوية، ومن تلك المحسنات مما يلي

---

[1]- ابن مخلوف القسنطيني، دراسة فنية جامعة محمد خيضر بسكرة، 2009.
[2]- النص القرآني في عينه بن خلاف، جامعة محمد خيضر بسكرة،2005.
[3]-
[4]- تاريخ الأدب المغربي، حنا فاخوري.
[5]- أبو حمو الزياني حياته وآثاره عبد الحميد حاجيات، ص222.

أ– الجناس: ومن الأمثلة عليه ما في قول أبي حمو موسى الزياني:

شوقا لمحبوب منامي قد حَمى ولقد شغفت بمن سكن الحِمى[1]

فقد جانس في هذا البيت بين الكلمتين حَمى وحِمى فالأولى تعني الحماية والثانية تعني المكان.

ب– التكرار: للتكرار أهمية في الأسلوب الأدبي، فهو يقي النغم الموسيقي، ويوضح المعنى ويؤكده ومن الأمثلة عليه في المدائح النبوية التي نظمها الشعراء المغاربة: قول بن الخلوف القسنطيني:

قالو: بمن جُنّ قيس فؤاده فقلت: جن قيس المتيم[2]

5– التشكيل الموسيقي:

الإيقاع عنصر جوهري في الخطاب الشعري، ويعود الجزء الكبير من قيمة الشعر الجمالية إلى الموسيقى والموسيقى تقوم على عنصرين هما: الوزن والقافية.

أ– الوزن: وهو ركن أساسي في النص الشعري، ومن الأوزان التي استخدمها الشعراء المغاربة في مدائحهم النبوية: الطويل، والكامل البسيط.

ب– القافية:استخدم شعراء المديح النبوي في المغرب في الغالب القافية المطلقة ومثال ذلك قول ابن خلوف القسنطيني:

لَوْلَاهُ مَا كانَ نَجْمٌ وَلا ولافَلَكٌ وَلاوهادٍ ولاَ غَوْرٌ ولا أَكَمٌ[3]

ت– الروي: نوع الشعراء في إستخدامهم لحرف الروي في قصائدهم النبوية ومن الحروف التي التي استخدموها: **الميم والعين والباء والياء** ومن الأمثلة على ذلك ما في قول ابن الخلوف القسنطيني:

هُوَ الغَايَةُ الْقُصْوَى لِمنْ هَو طالِبٌ هَو الآيةُ الكُبْرَى لِـمنْ يَتَوَهّـــمُ

هُوّ الْرّحْمَةُ العُظْمَى التي حَظُّهَا هُو الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى التي لاَ تَتْقَسِمُ[4]

إذا استخدم الميم حرف الروي.

من مدائح ميمون الخطابي.

ترجمة الشاعر:

هو أبو عمرو ميمون بن علي عبد الخالق الخطابي، وكان معروفا بأبن خبازة وهو من مشاهير الشعراء المغاربة في عهد الموحدين، وقد ولد في مدينة فاس في سنة لم يذكرها مترجموه.[1]

---

[1]- أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره عبد الحميد حاجيات، ص

[2]- المرجع اليابق، ص483.

[3]- ابن الخلوف القسنطيني وديوانه "جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين"، ص129.

[4]- المرجع نفسه، ص391.

وقد جلس ميمون الخطابي لبعض علماء المغرب، آخذا عنهم مبادئ العلوم، ثم إنتقل إلى بلاد الأندلس، فواصل دراسته في كثير من مدنها كمالقةوفلنسية وغرناطة، ولد برع في عدة علوم العربية والحديث الفقه والأدب حتى وصفه بعضهم بأنه "من أكبر أعاجيب الدهر".

عاش ميمون الخطابي متنقلا بين المغرب والأندلس، وقد عَاصَرَ عدة خلفاء موحدين كأبي يوسف بن عبد المؤمن، وأبي يوسف يعقوب المنصور، وأبي العلاء إدريس المأمون وكانت وفاة ميمون الخطابي بمدينة الرباط 637هـ، وفيها دُفِنَ، ومازال قبره معروفا إلى اليوم، ويطلق العوام على ساكنه "سيدي الخباز" محرفين لقبه "ابن الخبازة" وقد كان ميمون الخطابي في آخر حياته ميلا إلى مدح الحكام في بلاده وهجاء أعدائهم.[2]

ويعبر بعض شعره عن المرحلة التي تنكر فيها بعض الخلفاء لمبادئ المهدي بن تومرت زعيم الموحدين يقول في هجاء المهدي بن تومرت بعد أن أمر أبو العلاء إدريس المأمون بإلغاء ذكره من خطبة والسكة:

وَجَدَ الْنُبُوءَةَ حُلّةً مَطْوِيـةً لاَ يَسْتَطيعُ الْخَلْقُ نَسْجَ مِثالِهَا

فاسْرَحوا في ارتغاء يَبْتَغِي بمَحَالَةٍ نَسجا علـى منْوالِـها[3]

ومن أشهر ما قال ميمون الخطابي في مدح الرسول ρالبائية المشهورة التي سأعرض بعضها فيما يلي ثم أحاول شرحه بإيجاز.

نص القصيدة:

رسول براه الله من صفو نـــوره وألبسه بردا من النور ضافـــيا

ومازال ذاك النور من عهـــد آدم ينير به الله العصور القوافـــل

ثوى في ظهور الطيبين، يصونـه وديعة سر صار بالبعث فاشـيا

وخصّ بطون الطّيبات لحملـــه ليحمل قرعا للسيادة زاكـــيا

به وزن الله الخـــلائق كلهـــم فألفاه فيهم راجح الوزن وافـــيا

وأنقذنـــا من نـــاره بظـــهوره ولولا كان الكل بالكفر صالـــيا

وآدم لما خاف يـــزري بذنبـــه توسل بالمختـــار لله داعـــيا

فتاب عليه الله بمـــا ذعابـــه وأدناه منه بعد أن كان نائـــبا

وقد يهجر المحبوب في حاله الرض ويأتي الهوى أن لا يصدق واشيا

---

[1]- ينظر: تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط1، 1996.

[2]- الشبة العنكبوتية.

[3]-

وآية جلت عن الـــعدد كثـــرة فما بلغ عنه أثرا فيه ناهـــــيا
تحدى بها أهل البيـــان بأســرهم فكلهم ألفاه بالعجـــز وانـــيا
وجاء به وحيا صريحـــا يزيـــده مرور الليالي جدة وتعالـــــيا
تضمن أحكام الـوجود بأسرهـــا وعمّ القضايا مثبتا به نافـــيا
وأخبر عمّا كان أوْ هو كائـــن يرى ماضيا أو ما يرى بعدُ آتيا
عليه ســلامُ الله لا زال رائحـــا عليه مدى الأيام حقا وغـــاديا[1]

شرحها:

يمدح ميمون الخطابي في هذه القصيدة –النبي ρ– عارضا سيرته العطرة من البداية إلى النهاية، مشيدا بخصاله الحميدة، فيذكر أنه النبي الذي ميزه الله عزّ وجل على سائر مخلوقاته، ولولاه لكان الجميع في ظلال مبين، ويذكر كيف توسل آدم –عليه السلام– به عندما خاف أن يؤخذ بذنبه، فتاب الله عليه وغفر له، ثم يبز الخطابي معجزة النبي ρ الكبرى وهي القرآن الكريم الذي أنزله عليه، فأخذ يأمر المشركين وينهاهم، متحديا فصحاء العرب، معجزاً إياهم ثم يذكر الخطابي أن القرآن قد تضمن جميع أحكام الوجود، وشمل كل القضايا، وأخبر عما هو موجود، وعمّا لم يوجد بعد.

[1]- المرجع السابق، ص182.

المدائح النبوية في الشعر المغربي الحديث والمعاصر.

قصيدة وحي الذكرى للربيع بوشامة.

1– ترجمة الشاعر:

ولد الشاعر الجزائري الربيع بوشامة سنة 1916م في قنرات ببني يعلى وفيهاتعلم القرآن الكريم، وأتم دراسته الإبتدائية بالعربية والفرنسية، ثم انضم إلى تلاميذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بقسنطينة سنة 1937م. كان عضوا فاعلا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين داخل الوطن وخارجها حيث اشتغل بالتعليم في مدارسها الحرة وبتثقيف وتوعية عمالنا في أرض الغربة بفرنسا.

وبعد الحرب العالمية الثانية استقر بالحراش ليدير مدرسة الثبات، واتصل فيها بثورة التحرير، ألقى عليه القبض سنة 1958م، واستشهد في مراكز الاستنطاق والتعذيب سنة 1959، ومن شعره الذي أغلبه في جريدة البصائر نقدم هذه القصيدة التي يرحب بها بعيد الهدى عيد المولد النبوي الشريف.

2– نص القصيدة:

عيد الهدى والعلا ما كان أحلاكـا وما أعز طول الـدهر محيـاك

رجعت للكون رحمى لا حدود لهـا ليسعد الناس والـدنيا بمـرآك

وعدت بالسعد والبشـرى تزفهمـا إلى بني الضاد الإسلام أبنـاك

يامولد النور في أعلـى مراكـز كرمت ذكراً وطاب اليوم مسراك

هذي الجزائر في أسمى عواطفهـا قامت توفيك تكريما وترعـاك

هذي الشبيبة في الحـب ومكرمـة حفت بعرشك أزهـارا وامـلاك

تجمعوا من صميم العرب في حـرم ليحتلوا حسنك الأحلى ومنعـاك

وإذا كنت يا عيد للأوطان رمز علا وروح جد سما توحيه ذكـراك

حملت ماضيها المحبوب فهي ترى أيامها الغر تزهو في محيـاك

هذي قلوب بني الإسلام طاهـرة قد هيئت لتكون اليوم مغنـاك

فانزل بها خبير ضيف، وازدهر أبدا فإنها عرشك الأعلى ومـأواك

3– شرح القصيدة:

رغب الشاعر في إظهار حسن ذكرى المولد النبوي الشريف فأقرّ بأنها مناسبة طيبة وأن هذه الذكرى تعود بالسعادة والاطمئنان لنفوس المسلمين، وإن بلاد الجزائر تحي هذه المناسبة كبقية بلدان العالم الإسلامي وتحييه بما يليق به ويناسبه، وإن الشباب في الجزائر وحتى في فترة الاستعمار كانت تحيي هذه الذكرى الحسنة ويجتمعون في المساجد لتدارس السيرة النبوية الشريفة، ثم إن ذكرى المولد النبوي تعود الأمة لدراسة تاريخها الماضي، وظروف مولد الرسول ρ ثم رحب الشاعر بعود ذكرى المولد النبوي الشريف.

قصيدة ذكرى المولد النبوي لمحمد العيد آل خليفة.

ترجمة الشاعر محمد العيد آل خليفة:

محمد العيد آل خليفة و محمد العيد بن محمد علي بن خليفة من محاميد سوف المعروفين بالمناصير من أولاد سوف ولد بمدينة عين البيضاء بولاية أم البواقي في 28 أوت 1904م، حفظ القرآن الكريم ودرس المرحلة الإبتدائية ثم إنتقل مع أسرته إلى مدينة بسكرة سنة 1918م، وواصل دراسته بها على يد الشيوخ الأفاضل علي بن إبراهيم العقبي الشريف والمختار بن عمر اليعلاوي والجندي أحمد مكي، سافر إلى تونس سنة 1921 حيث درس بجامع الزيتونة ثم رجع إلى بسكرة سنة 1923م وشارك في حركة الإنبعاث الفكري بالتعليم والنشر في الصحف والمجلات[1] ، مثل صدى الصحراء– الشهاب– الإصلاح.

وفي سنة 1927م استدعي ليدرس بمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فكان عنصر فعالا في هذه المدارس وفي هذه الفترة واصل نشر قصائده في صحف الجمعية في جرائد (البصائر– الشريعة– الصراط– السنة– المرصاد والثبات) كما شغل مديراً بهذه المدارس كما درس بعين مليلة وبمدينة باتنة، وبعد إنطلاق الثورة التحريرية سنة 1954م ألقت عليه فرنسا القبض وزُجّ به في السجن ثم أطلق سراحه، وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مدينة بسكرة حتى استقلال وطننا الجزائر سنة 1962م.

نص القصيدة:

ألا أنعم أيـها النـادي بذكرى مولد الهـــادي

لقـــد جئنـــاك ورّادا علـى أثـــــار ورّادِ

وقمنا فـي مســرات وأفـــراح وأعيـــاد

نحي خيـــر مولـــد بدا في خير ميـــلاد

نحي سيدا في الخلـق متبوعـــا بأسيـــاد

[1]- شعراء الجزائر ديوان محمد العيد –محمد على خليفة (محمد العيد آل خليفة) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص1.

نحي مرشد لـــم يـب لغ منهم أجر إرشـــاد

نحي داعـي الحسـنى نحي راعـــي الضـــاد

نحي المصطفى المختا ر آبـــاء لأجـــــداد

نحي منـــه أخلاقـــا زكـيـــات كـــأوراد

نحي شرعـة الوضـــا ح مثل الشمس في الرّاد

نحي عصره الممتـــا ز في يمـــن وإسعـــاد

بحفل حف في حنبيه ـــه أجـــواد بـــأدواد.

شرح القصيدة:

دعا الشاعر لأفواج الشبيبة في نادي الترقي وهنأهم بذكرى المولد النبوي الشريف وقال إذا الجميع قد حضروا ليشهدوا الإحتفال وقال إننا نحي مولد خير الأنام الرسول ρ فلقد إتصف بالخصال الحميدة والمثل العليا وإرشاد الناس للخير والعدل والمساواة فقدكان مولده ومبعثه رحمة للعالمين.

القيمة الدينية والفنية لقصائد المديح النبوي:

تبرز مدى تعلق المسلمين بالرسول ρ

المحاضرة العاشرة : شعر المعارضات بين المشرق والمغرب

يعتبر فن المعارضات الشعرية باب من أبواب الشعر العربي قديم قدمه استمر عبر العصور الأدبية وامتد إلى عصرنا الحاضر، حيث كثرت معارضة الشعراء القدامى بعضهم لبعض، ومعارضة المحدثين للمحدثين القدامى فقلت معارضة المحدثين للمحدثين فما أن يلمع نجم قصيدة من القصائد حتى يتسابق الشعراء إلى معارضتها، ويتبارون في ذلك مجتهدين في إبراز أحسن ما عندهم من أدوات الفن الشعري حتى تكون القصيدة المعارضة في مستوى القصيدة الأصلية أو أحسن منها، أما أساب اختيارنا لهذا البحث فتنقسم إلى قسمين ذاتية وموضوعية، الموضوعية تتمثل في إثراء رصيد زملائنا الطلبة والذاتية تتمثل في اكتشاف خفايا هذا الموضوع، ومن هنا نطرح التساؤلات التالية: فيما تتمثل المعارضات الشعرية؟ وللإجابة عن التساؤلات وضعنا خطة بحث محكمة تتمثل في مقدمة كمنهجية للموضوع ومجموعة من المباحث كل مبحث تندرج تحته عدة مطالب بإعتمادنا على مجموعة من المراجع والمصادر، وأما عن المنهج المتبع فهو منهج تحليلي.

المعارضات الشعرية:

1–تعريف المعارضات:

أ–المعنى اللغوي: وعارض الشيء بالشيء: قابله، وفلان يعارضني وعارض في السير: سار حباله وحذاه وعارضته بمثل ما صنع أي أتيت إليه بمثل ما أتى وفعل مثل ما فعل[1].

ب–المعنى الاصطلاحي: يعرف شعر المعارضات بأنه نظم شعر موافق لشعر آخر في موضوع معين، حيث يلتزم نظم الشعر الآخر في قافيته وبحره وموضوعه التزاما عاما يعرض فيه الشاعر على مضاهاة الشاعر المعارض في شعره إن لم يتفوق عليه وقد يلجأ الشاعر إلى هذا النوع من الشعر عند ما يراه في

[1]لسان العرب، ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين)، مادة عرض.

شعر غيره من الشعراء ما يمتاز به من فصاحة وروعة صياغة أو صور معبرة وغيرها من أمور تثير نفس المعجب[1].

2–**تاريخ المعارضات**: الشعر الجاهلي هو أقدم شعر وصل إلينا ولهذا اتخذ مثلا ونموذجا ينبغي احتذاؤه دون أن نجد فيه ذكرا لمعارضات شعرية قبله بل فيه من ذلك حادثة الاحتكام إلى أم جندب لزوجة أمرؤ القيس والتي كانت بدون زوجها وعلقمة (الفحل) حيث قالت لهما: قولا شعرا نصفان فيه فرسيكما على روي واحد وقافية واحدة فقال أمرؤ القيس قصيدته:

خليلي مرا بي على أم جندب *** لنقضي لبانات الفؤاد المعذب.

حتى وصل إلى قوله:

فالسوط ألهوب وللساق درة *** ذهبت من الهجران في كل مذهب.

فقال لأمرئ القيس علقمة أشعر منك فقال وكيف ذلك؟ لأنك جهدت فرسك بسواط وأما علقمة فقد أدرك طريدته ولم يضربه بسوطه ولا زجره فقال أمرؤ القيس ما هو بأشد مني ولكنك واقمةفطلهقا وخلف عليها علقمة فسمي (الفحل).

أنواع المعارضات الشعرية مع الأمثلة: لقد تنافس الشعراء قديما وحديثا في شعر المعارضات وفيما يأتي عرض لأنواع المعارضات الشعرية:

أ–معارضة الشعراء القدماء للقدماء: اشتهر هذا النوع من الأدب بين الشعراء قديما وخصوصا في فترة الازدهار ومن الأمثلة على ذلك معارضة صفي الدين الحلي للمتنبي[2].

يقول المتنبي: امتدح فيها علي بن منصور الحاجب:

يأبي الشموس الجانحات غواربا اللابسات الحرير جلابيا.

[1]عبد الرؤوف زهدي مصطفى عمر الأسعد، المعارضات الشعرية وأثرها في إغناء التراث الأدبي، ص 904–919.

[2]عبد الرؤوف زهدي مصطفى عمر الأسعد، المعارضات الشعرية وأثرها في إغناء التراث الأدبي، ص 916/911.

قول صفي الدين: معارضا المتنبي التي امتدح بها السلطان ناصر بن محمد:

أسلبن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبات القلوب ذوائبا.

ب–معارضة الشعراء المحدثين للقدماء: انتقلت المعارضات الشعرية من العصر القديم إلى العصر الحديث ومن أبرز القصائد قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي معارضا البحتري[1].

البحتري: وصف بها إيوان كسرى ومطلعها:

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس.

أحمد شوقي: وصف بها آثار المسلمين في الأندلس ومطلعها:

اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي.

2–أثر شعر المعارضات على التراث الأدبي:

*تجاوز مرحلة التقليد والانطلاق إلى سياق الإبداع والابتكار، فقد فاق بعض المعارضين فيما نظموه من عارضوهم من الشعراء من حيث الأسلوب والمضمون.

*انتشار روح التنافس بين الشعراء لعرض قدراتهم في ميادين الشعر مما جعل رياض الأدب خصبة بالفرائد والنوادر ليشيدوا بذلك صرحا أدبيا عظيما يصور المعنى الحقيقي لمقولة "الشعر ديوان العرب".

*المحافظة على التراث الشعري القديم والحديث عبر العصور[2].

أغراض المعارضات الشعرية: لم تقتصر المعارضات في الشعر فقط بل في النثروأسماء المدن وغيرها فمن باب أولى تنوعها في أغراض الشعر فنجد معارضات في المدح والغزل والاعتذار والهجاء والرثاء والوصف وإذا كانت المعارضات تلتزم الوزن والقافية فإن موضوعها لا يتحدد بل يتعدد فالمعارض

[1] نفس المرجع.
[2] نفس المرجع.

الكفء هو الذي يتابع الشاعر المعارض في قصيدته في كل غرض وموضوع كما يتابع الفارس الفارس في نزاله في كل خطوة لا يتجاوزه ولا يبتعد عنه حتى ينتصر عليه[1].

س: هل المعارضات كانت في الشعر فقط؟

ج: إن المفاوضات كانت في الشعر والنثر بل حتى في الحياة اليومية وما ذلك إلا إعجاب الأندلسيين بأدب المشرق وتأثرهم به لأنهم كانوا يجدون فيه الوطن الأم الذي نزحوا منه وهم فرع من هذه الشجرة ومعروف أن الفرع يعود إلى الأصل فأسماء مدن المشرق كانت في المغرب، وفي النثر مثل ذلك فتعمده في اتخاذهم أسماء الكتب والمؤلفات مماثلة لنظائرها المشرقيةواتخاذهم فيها مناهج مشابهة لكتب المشارقة فكتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه حاكى فيه (عيون الأخبار) لابن قتيبة وكتاب ابن بسام المشهور (الذخيرة) تأثر في تأليفه بكتاب (يتيمة الدهر) للثعالبي[2]، ومن هذا يتبين لنا أن المعارضات كانت في الشعر والنثر ولم تقتصر على واحد فقط.

الخاتمة:

بعد هذه اللمحة السريعة على المعارضات تتضح عدة أمور منها أن العارضات الشعرية ظاهرة ابداعية خارجة عن التقليد لأن الشاعر قد يصوغ الفكرة صياغة جديدة وهذا ليس تقليدا وقد ينظم قصائد ليس فها معارضات ويتجه للمعارضات لإثبات الذات.

أن الشعر بالعصر الأندلسي مر في فترة ازدهار لم يشهد العرب لها مثيل ويقصد بالشعر الأندلسي هو ذلك الشعر الذي كتب في العصر الأندلسي حيث يتفرد فنون شعرية معينة.

واتسم الشعر في ذلك العصر بالوضوح والاستعانة بالكلمات السهلة والمفهومة مرفوقة بالأسلوب الجميل السهل الفهم ولقد تنوعت أغراض الشعر الأندلسي بين الغزل والمديح والرثاء والوصف للأطلال والاستغاثة والاستصراخ وهذا سوف يكون موضوع بحثي.

[1] الأدب الأندلسي للدكتور منجد مصطفى بهجت، ص 274.

[2] نفس المرجع، ص 273/271.

ولقد اعتمدت في هذا العرض على منهجية محكمة تمثلت في مقدمة وعرض وخاتمة حيث ضم العرض المبحث الأول تعريف الاستغاثة ودوافعها في الشعر الأندلسي وأنواع الاستغاثة أما المبحث الثاني فتطرقت فيه إلى تعريف الاستصراخ والظواهر الموضوعية في شعر الاستصراخ والظواهر المجالية في شعر الاستصراخ أما السبب الذي دفعني لاختيار هذا الموضوع هو حبنا للاطلاع على شعر الاستغاثة والاستصراخ في الأندلس ومعرفته أما الصعوبات التي واجهتني في بحثي هي قلة المراجع وعدم توفيقي في الوصول إليها.

المحاضرة الحادية عشرة : شعر الاستغاثة والاستصراخ في الأندلس

I –الاستغاثة:

في معجم مقاييس اللغة مادة (غوث): الغين والواو والثاء.

واحدة هي الغوث من الإغاثة وهي الإعانة عند الشدة[1].

شعر الاستغاثة في الأندلس يقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب العربي في المحل الأول وهم المسلمين في شتى أقطارها كي يصيبوا ببعث.....الإسلامية لنجدة إخوانهم بالأندلس ومد يد العون لهم في جهادهم ضد أعدائهم من نصارى الأندلس الذين أطمعهم ضعف الملوك المسلمين بعد .....يضاعفون من غاراتهم على مدنهم ويصيدون أهلها باكتساح شامل[2]

II –دوافع الاستغاثة في الشعر الأندلسي: ونلخصها في ما يلي:

صراع بين أمراء الطوائف واستعانة بعضهم بالفرنجة ضد إخوته المسلمين وانغماس بعضهم في اللهو وعدم تفكيرهم في مصير الدولة الاسلامية الأندلسية ويقول الدكتور شوقي ضيف:«أخذت قصائد الاستنفار والاستصراخ تجلب الغوث والعون تتكاثر في الأندلس منذ أمراء الطوائف اذ انقسمت الأندلس الشائعة إلى أندلسيات ودول وإمارات كثيرة وأخذ أولائك الأمراء يعيشون اللهو وقل ما فكروا في مصير الأندلس وكثير منهم كانوا يحملون السلاح ويسددونه ضد جيرانهم الأندلسيين المسلمين...».

ما أصاب نساء المسلمين من الهوان وهتك أعراض المؤمنات وتخريب المساجد وجعلها كنائس حيث كان لذلك أثر كبير في كتابة شعر الاستغاثة لاستغاثة النخوة العربية والدفاع عن الحرمات والمقدسات الاسلامية.

[1]معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، 4: 400، عيسى الحلبي، 1369.

[2]الأدب العربي في الأندلس، د/عبد العزيز عتيق، 1980، دار النهظة العربية للطباعة والنشر، ط2، 1976.

سقوط العديد من المدن والقرى والحصون في أيدي الصليبيين وتنازل بعض الأمراء عن القواعد الأندلسية لأعداء الدين يقوا ابن بسام:«وقد حلت الفاقرة وقضت القضية وتعجلت البلبلة بحصول مدينة طليطلة [1] في يد النصارى».

الصراع الأندلسي مع الفرنجة فقد كان الأندلس في حرب وصراع دائم مع العدو وعاشوا ما يقارب من ثمانية قرون يوطئون أنفسهم على أنهم أمل العرب في ثغر إسلامي يتطلب منهم الجهاد والاستنفار وينظرون لقائدهم على أنه بطل معارك وحرب[2].

أنواع الاستغاثة:

الاستغاثة بالله تعالى: حيث لجأ بعض الشعراء إلى المولى تعالى مستعينين به وطالبين غوثه ونصرته وأن يكشف ما نزل بالمسلين وأن يفرج عنهم الكروب والشدائد:

إن الورى ندعوك يا خير منجي كالحة[3]

هو الصليب بسرورها

ورشقت جيوب المؤمنين وأسخنت

أعينهم ظل قريرها

وبعد أن لجأ الشعراء إلى الله تعالى واستغاثوا به توجهوا إليه بالدعاء وأن يشتت شمل الكفرة والأعداء وأن يجمع شمل المسلمين.

[1]طليطلة: مدينة الشعراء ذات خصائص محودة بالأندلس وهي غربي ثغر الروم وبين الجرف والشرق من قرطبة وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم وملكهم الافرنج 488، معجم البلدان لياقوت الحموي، دار الصدا بيروت.

[2]تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، د/ محمود رضوان، الداية:13، ط2، 1414هـ، 1993،مؤسسة الرساله.

[3]كالحة، كلوح، فلان كلوح: عبس عبوسا، المعجم الوسيط 750 مادة (كلح).

فقد علق الدكتور عبد العزيز عتيق على هذا النوع بقوله:«ويبدوا أن الشاعر قد راجع نفسه فأدرك من شواهد الأحوال السابقة أن مثل هذه الاستغاثة بالمخلوق لا جدوى منها وأنهاكالاستغاثات الكثيرة»[1].

الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم: فقد اتجه بعض الشعراء إلى الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم والاستعانة به لإنقاذ المسلمين مما نزل بهم من المحن وكان هذا اللون من الشعر من خلال شعر المديح النبوي بقول الدكتور شوقي ضيف:«حين اشتد الضعف بدولة الموحدين وأخذت المدن الأندلسية الكبيرة تسقط مدينة وراء مدينة في حجر النصارى الإسبان الشماليين وتكاثر المديح النبوي إذ اتخذه الشعراء الأندلسيين أداء الاستغاثة والاستنجاد بالرسول الكريم لإنقاذهم من محنتهم وكانوا لا يكتفون بنظم الأشعار النبوية إذ كانوا يرفقونها برسائل إلى القبر النبوي الشريف واصفين ما يعانيه وطنهم من محن خطيرة»[2].

الاستغاثة بالحكام:لإنقاذ بلاد المسلمين والجهاد في سبيل الله فقد كان الشعراء يشاهدون بلاد الأندلس وهي تسقط على أيدي الأعداء فيجأرون شعر الاستغاثة طالبين العون والنجدة ومخاطبين به قلوب ملوك المسلمين عامة وملوك المغرب العربي خاصة من مرابطين وموحدين ومرنيين فيستجاب لصريفهم حينا وتصم الآذان عنه أحيانا[3].

من هذا النوع من الاستغاثة قول ابن البار وهو يستغيث بأمير تونس لإنقاذ بلنسية:

أدرك نجيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها درسا[4]

[1]الأدب العربي في الأندلس، د/ عبد العزيزعتيق، 425.

[2] تاريخ الأدب العربي، عصر الدول الإمارات:(الأندس)، د/ شوقي ضيف، .....،

[3]الأدب العربي في الأندلس،د/ عبد العزيز عتيق:414.

[4]نفح الطيب:4: 456، تحقيق: إحسان عباس وتاريخ ابن خلدون: 6:283، مؤسسة كمال للطباعة والنشر، بيروت.

II –الاستصراخ:

لغة: الاستصراخ في لسان العرب مصدر من استصرخ بمعنى استغاث أما الاستصراخ شعرا فقد ارتبط ارتباط وثيقا بالأندلس حين كانت للإشادة وسقوط المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى وهو شعر يقوم على استصراخ الخلفاء والملوك من أجل طلب النصرة والعون كما يرمي إلى شحذ همم المسلمين في العدوة المغربية للدفاع عن الأندلس عبر الجهاد في سبيل الله وقتال النصارى المستولين على الحواضر الإسلامية الكبرى (وقد جرت العادة أن ترافق قصيدة الاستغاثة مكتوبا سلطانيا يتوجه به سفير إلى هذا الملك أو ذلك وقد يرتجلها السفير نفسه على لسان سلطانه وقومه)[1]

الظواهر الموضوعية في شعر الاستصراخ:

لاشك أن هذا النوع من الشعر جملة من القصائد المضمونية التي تميزه عن بقية الأغراض الشعرية الأخرى إن اشتركت في بعضها مع أ غراض أخرى كشعر الحنين وشعر رثاء المدن والمماليك .....والقصيدة الاستصراخية تتألف عادة من مجموعة من الوحدات المترابطة ترابطا عضويا سواء من جهة الموضوعات التي تتناولها أو من جهة الحالات الانفعالية التي تشيع فيها.

أما الموضوعات التي تتناولها القصيدة الاستصراخية فتأتي غالبا مشكلة كالتالي:

الحماسة:

هو أول طابع نقف عليه في معظم القصائد الاستصراخية ويقصد به تلك الحماسة العالية المرتفعة وتلك الحرارة وذلك العنف الذي نلمسه في ثنايا الشعر وهو يدعو إلى الجهاد ويستنفر الهمم لاسترداد ما سلب وهذا ما يتجسد في أول قصيدة (ابن الأبار) السينية الشهيرةالتي يقول في مطلعها مخاطبا أبا زكرياء الحفصي أمير تونس إثر حصار بلنسية من طرف يحي الأراغواي سنة 635هـ .

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل في منجاتها درسا

[1] حسين اليعقوبي، قصائد غير منشورة في الاستصراخ والاصراخ، دراسات أندلسية، العدد: 05 يناير 1990.

وهب لها من عزيز النصر ما فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاش مما تعانيه خشاشها فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

طهر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا

وأطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأ رأس كل من رأسا

والنصر عبيدا بأقصى شرقها تشرق عيونهم أدمعا تصمي زكا وخسفا[1]

رثاء المدينة المنكوبة ورسم الصورة المأساوية:

التي وصلت إليها المدينة المستغاث لها وكذا وصف المآسي التي حلت بالمدن الأندلسية التي سقطت في أيدي الأعداء وفي أثناء هذا الوصف يعمد الشاعر دائما إلى المقارنة بين أموال المدن المنكوبة قبل سقوطها وبعد سقوطها مركزا على التحولات في الجانب الديني: خروج الإسلام منها وحلول الكفر محله، تحول المساجد إلى كنائس/ حلول قوانين الأجراس محل صوت الآذان بقول ابن الأبارمركزا على هذا العنصر في سينيته:

بالجزيرة أضحى أهلها جزرا للمحادثات وأمسى جدها تعسا

في كل شارقة إلمام بائقة يعود مأتمها عند العدى عرسا

وكل غاربة اجحاف نائبة تثنى الأمان حذرا والسرور أسى

نقاسم الروم لا نالت مقاسمهم إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية ومنها وقرطبة وما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الاشراك متبسما جذلان وارتحل الاسلام مبتسما

[1] ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعيالبلنسي، قراءة وتعليق: عبد السلام الهراس،الدار التونسية للنشر، 1985، ص 395.

ومسيرتها العوادبالعائثات بها يستوحش الطواف منها ضعف ما أنسا

فمن دساكر كانت دونها حرسا ومن كنائس كانت قبلها كنسا[1]

نجد المعنى نفسه في مرثية أبي البقاء الزيدي الشهيرة أين يقابل الشاعر دائما بين الصورة الولى للمدن المفقودة والصورة الثانية ويبكي عليها ويتفجع لسقوطها فيقول:

تبلى المنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الاسلام خالية قد أسلمت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس مافيهن إلا نواقيس وصلبان[2]

مديح المستغاث به واستصراخه:

قائدا كان أم جماعة كما فعل ابن الأباز في سينيته التي تتكون من ثمانية وستين بيتا منها مايقارب من ثلاثة وعشرون بيتا في رثاء بلنسية ووصف سوء أحوالها والباقي في مدح المير الحفصي أبو زكريا واستصراخه:

صل صلها أيها المولى الرحيم فيها أبقى المرسى لها حبلا ولا مرسيا

وأحي ما طمست منه العداء كما أحييت من دعوة المهدي ما طمسا

أيام سرت لنصر الحق مستبقا وبت من نور ذاك الهدى منقبسا

وقمت فيها بأمر الله منتصرا كالصارم اهتز أو كالغارضالنجسا

هذي رسائلها تدعوك من كثب وأنت أفضل مرجو لمن ينسا[3]

[1]المرجع نفسه، ص 395-396.

[2]ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعيالبلنسي، قراءة وتعليق: عبد السلام الهراس،الدار التونسية للنشر، 1985، ص 397-399.

[3]ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعيالبلنسي، قراءة وتعليق: عبد السلام الهراس،الدار التونسية للنشر، 1985، ص 397-399.

ومما قاله لسان الدين ابن الخطيب في مقدمة إحدى قصائده التي يستصرخ فيها كافة المسلمين في المغرب ويستعطفهم لإنقاذ الأندلس:

إخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا

وإذا بلغ الماء الزبلى فتداركوا فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا

تحكم على سكان أندلس العدا فلهفا على الإسلام ما بينهم لهفا

أنوما وإغفاء على سنة الكون وما نام طرف في لحاها ولا أغفى؟![1]

الظواهر الجمالية في شعر الاستصراخ: وإذا كان الهدف من الشعر الجيد عند حازم هو إحداث الغرابة وتوليد المفارقة في المستلقي فإن شعر الاستصراخ قد حقق مت تلك الغاية الشيء الكثير فهو وإن كان يستمد أهميته من خلال المناسبة التي قيل فيها وإن كانت معانيه مألوفة مكررة «لكنه في أغلب نماذجه كان شعرا جيدا يتسم بتدفق العبارات وحلاوة الجرس وقرب المأخذ وإذا كان حظ معانيه من الابتكار ضئيلا وحظ صوره من الإبداع قليلا فإن نماذجه في مقابل ذلك كانت مفعمة بأصدق العواطف حافلة بأحر المشاعر»[2].

وتكمن شعرية قصائد الاستصراخ عامة في كيفية إبراز ذلك الجانب المأساوي في سقوط المدن الأندلسية ومعاناة أهلها من ظلم العدو فالشاعر يعتمد في تحقيق غاية التأثير في المتلقي على تقنيات أسلوبية خاصة تعمل على نمو النص الاستصراخي وامتداد دلالته منها:

توظيف أسلوب السرد: فأكثر قصائد الاستصراخ تتسم بالطبع القصصي حيث تصبح فيه القصيدة قصة شعرية وكون النص الاستصراخي ينتقل من مراحل سقوط المدن والحداث المختلفة التي تتعلق بذلك والحالات الشعرية التي تغمر الشاعر ومن معه.

[1] ديوان لسان الدين ابن قطيب، (ط1 المغرب)، ص 677، عن رضوان الداية في الأدب الأندلسي، ص 169-170

[2] حازم القرطاجني، مناهج البلغاء وسراج الأدباء، تقديموتحقيق: محمد حبيب الخوجة، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص 86.

ولقد حقق شاعر الاستصراخ من خلال عنصر السرد والحكي مسألة الإثارة وتحقيق اللذة في هذا النوع من الشعر وذلك من خلال إبراز تفاعل الأحداث وتباينها.

المقابلة والمطابقة: تعتبر المقابلة من العناصر الأساسية في شعرية قصائد الاستصراخ وهي تعمل على نمو النص وتوليد الدلالة يقول حازم القرطاجني:«إن المعاني تقترن على أساس المضادة والمخالفة»[1].

فشعر الاستصراخ وهو يصف حال الأندلس عامة أو المدن المنكوبة التي سيطر عليها النصارى يعتمد على عنصر المقابلة أو المقارنة بين ماضي المدينة وحاضرها وبين دخول الشرك وارتحال الإيمان، من ألفاظ المطابقةنجد: المأتم/العرس، السرور/الأسى، الإشراك/الإيمان.

الارتكاز على المجاز والتشبيه والاستعارة: بهدف تركيز التجربة وكل ذلك يتم بواسطة الصورة التي تشحن بأبعاد دلالية ونفسية وجمالية ويعتني شاعر الاستصراخ بالصورة بوصفها تقنية فاعلة من تقنيات الاتصال الجماهيري والتأثير في المتلقية خاصة المتلقي المسلم في الأندلس وخارجها وفي زمن الشاعر لتحيك مشاعره وضمان تعاطفه مع الأندلسيين واستثارة حميته لنصرتهم ومساعدتهم وأكثر ما تتجلى هذه التقنية لدى عرض الشاعر مجموعة من المشاهد المؤثرة تمثل ما حل بالأندلسيين بعد استيلاء العدو على مدنهم والذي يمعن النظر في هذه المشاهد يتخيل الشاعر ممسكا بآلة تصوير تلفزيون وسينقل بعدستها من مشهد إلى مشهد وكأنه يعيش في عصرنا عصر الإعلام والصورة مما يدل على أن الشاعر قد قصد فعلا أن يستخدم قصيدته للقيام بدور إعلامي جماهيري[2].

[1] حازم القرطاجني، مناهج البلغاء وسراج الأدباء، تقديموتحقيق: محمد حبيب الخوجة، ط2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص 86.

[2] جرار، صلاح، قراءات في الشعر الأندلسي، ط هـ، عمان، الأردن ، دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة، 1427/2007هـ، ص 125.

المحاضرة الثانية عشرة : التشكيل في النص الشعري في العصرين المملوكي و العثماني

لقد استطاع الشعر أن يكون سيد فنون القول قديما، وهي حقيقة معروفة من لدن الخاص والعام . وأدوات التصوير والتشكيل جوهر ثابت فيه؛ فهما أسه وأساسه التي لا يمكن بأية حال من الأحوال الاستغناء عنهما, وأدوات التشكيل في القصيدة الشعرية؛ تتمثل في اللغة والصورة والإيقاع والمعاني، وجميعها تحقق الانسجام داخل القصيدة؛ لأن عملية التشكيل التي يقوم بها الشاعر صعبة ومعقدة؛ لأن كل هذه الأدوات لا تعد حشوا، وإنما ينفخ الشاعر فيها روحه وعاطفته وخياله وأسلوبه حتى تؤتي ثمارها للمتلقي وتزداد حيويتها، وبالتالي، تأثيرها.استنادا إلى شبكة المعطيات المؤلفة للأنموذج الاصطلاحي للتشكيل في المجال الشعري، فإننا سنحاول التركيز على عناصره الفنية في شعر العصرين المملوكي والعثماني، وهذه العناصر ترتبط في الأصل بحال الأدب فيهما، وتكشف عن جماليات ومميزات خاصة به.

1/التّشكيل: اللغة والاصطلاح:

التشكيل لغة من شكل يشكل تشكيلا، وهو فعل ثلاثي مزيد بحرف ،وصيغته فعّل تفعيل،"الشّكل، بالفتح: الّشبه والمثل،والجمع أشكال وشُكُول(...) ،وقد تشاكل الشيئان وشاكل كل واحد منهما صاحبه(...)،وشَكل الشّيء:صورته المحسوسة والمتوهمة(...) وتَشَكّل الشّيء: تصور، وشكّله: صوّره"[1]

ولم يكتف العرب بدلالة الكلمة (شكل)في معاجم اللغة، بل ابتعدوا كثيرا في تقديم مزيد من الدلالات حول اللفظة بتشكيلاتها المتعددة، فصيغة (تَشَكّلَ) وردت بدلالة التنوع اللوني ودليل دلك قول العرب: تشكّل العنب:أينع بعضه، وهدا فيه دلالة اللون المتعددة؛ لأنّ العنب إدا اسودّ بعضه ،فإن

[1]-- ابن منظور الإفريقي المصري أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط6 ،2008م. ج:08.ج:08 ،ص:119

.

بعضه الآخر سيتقى ألوانه متعددة، أو قل ان شئت أنّ ألوانه متدرجة، ومن المجاز قول العرب: تشكّل الشيء:تصوّر، وشكّله: صوّره؛ لأنّ أساس التصوير والتصور لا يكون إلا بتخيل الألوان، وضم بعضها إلى بعض.وأما صيغة شكل فقد وردت مع شكل من أشكال زينة المرأة.2

فالعلاقة تبدوا واضحة جلية –من المعنى اللغوي– بين أنماط الإبداع الفني المادي رسوما، وزخارفا، ونقوشا، والإبداع الفني شعرا ونثرا.والمتمثل في القدرة عن والتصوير والتعبير عن المعاني بأسلوب أدبي جميل، وهكذا انطلق الأدباء في رسم أجمل التشكيلات ودلك باعتمادهم عن أجمل حياكات الإبداع المادي ،"فقد كانت هده الأنماط بمثابة المصباح،الذي يضيء لهم سبل الإبداع(...) فاندفعوا ينظمون أروع الأشعار والأبيات.ويكتبون أروع القصص والروايات."3 وغيرها من الفنون الأدبية .

وغير بعيد عن المعنى اللغوي نجد الدلالة الاصطلاحية ؛لأنّ كثرة الاستخدام اللغوي للفظة في اللغة تحمل في طياتها دلالات التشكيل في بعدها الاصطلاحي.

ومنه نقول بأن التشكيل في الاصطلاح:" أن يأتي الشاعر بمعنى مُشاكِل لمعنى في شعر غير دلك الشعر، أو في شعر غيره، بحيث يكون كلّ واحد منهما وصفا، أو نسبا، أو غير دلك من الفنون، غير أنّ كل صورة أبرز المعنى فيها غير الصورة الأخرى، فالمشاكلة بينهما من جهة الغرض الجامع لهما، والتفرقة بينهما من جهة صورتيهما اللفظية."4 وبصورة أوسع يكون معنى التشكيل على أنّه:" عملية تركيبية متكاملة تهتم بالمضمون اهتمامها بالشكل، فتنتظم فيها كل عناصر الإبداع في كلٍّ حيويٍّ متناغم".5

2ينظر: مجدي عايش عودة أبو لحية : جماليات التشكيل البلاغي في المقامات العثمانية،كلية الآداب، (أطروحة دكتوراه)، الجامعةُ الإسلامية ، غزة، 1438هـ - 2017م. ص:33

3- المرجع نفسه، ص:34.

4 -ابن أبي الأصبع المصري : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق: حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، د.ط، د.ت. ص:394

إن الأساس من كل ما قيل، أن التقدم الثقافي والرؤيوي والمنهجي الكبير والواسع والعميق الحاصل في المدونة النقدية الحديثة،" نقل النظريات والمصطلحات والمفاهيم والتعريفات إلى منطقة إدراك وتلقٍ" جديدة 7، فاستبدلت الثنائية التقليدية (الشكل والمضمون) بثنائية جديدة هي (التشكيل والرؤيا)،إذ تحول (الشكل) بمعناه الأحادي والمجرد والبسيط إلى (التشكيل) بمعناه المركب والمعقد والمتعدد، وتحول (المضمون) بمعناه المباشر والكمي والقصدي إلى (الرؤيا) بمعناها الحلمي والنوعي واللاقصدي.8

في هذا الإطار، واستنادا إلى هذه المرجعية المفهومية والاصطلاحية، يمكن القول"إن (التشكيل) هو : (الشكل) في وضعية صيرورة، وتمثل دائم، ومتموج للرؤيا ،وحراك دينامي حي حتى في منطقة التلقي".9

2/ أدوات التشكيل

إن المتتبع لعناصر الجمال في الأشكال الفنية عموما، والأجناس الأدبية على نحو أخص؛ هو في ظل هذا المنظور تشكيل قبل أن يكون جمالا،بما يكشفه فضاء التشكيل وأدواته الفاعلة من قدرات ذات خلاقة في إنتاج الجماليات التي تتآلف فيها بنيات النص خلال مراحل إنتاجه من البنية إلى الخطاب إلى النّص وصولا إلى التشكيل.

يتألف التشكيل من شبكة عناصر ومكونات وأدوات، تحتشد في سياق تكويني مؤتلف لبناء فضاء المصطلح، وتعد اللغة عنصرا مهما في بناء القصيدة بشكل عام، وبناء النص بشكل خاص .

5– العف عبد الخالق محمد: –التشكيل الجمالي في الشعر الفلسطيني المعاصر، وزارة الثقافة، فلسطين، د.ط، 2000م. ص:04 –05.

6 – سعاد عبد الوهاب العبد الرحمن: النص الأدبي بين التشكيل والتأويل، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان: الأردن، ط1 ،2011م. ص:3

7– محمد صابر عبيد: التشكيل مصطلحا أدبيا:منتديات ستار تايمز66627279 ? /http:/www.startimes.com

8– المرجع نفسه، الموقع نفسه. (بتصرف)

9–المرجع نفسه، الموقع

"واللغة هي قمة الإبداع الأدبي، الذي لا يعدو أن يكون استثمارا لإمكانيات اللغة، وتوفيقا لكلماتها وأنظمتها، التي خلقت من قبل ". 10

والشاعر حين قيامه بعملية تشكيل اللغة، يجب أن يعطينا انسجاما بين المعاني، والصور، فالتجربة الشعرية في "أساسها تجربة لغة، فالشعر هو الاستخدام الفني للطاقات الحسية والعقلية والنفسية والصوتية للغة، ولغة الشعر هي الوجود الشعري، الذي يتحقق في اللغة انفعالا وصوتا وموسيقى وفكرا... لغة الشعر، إذن، هي مكونات القصيدة 11الشعرية من خيال وصور موسيقية، ومواقف إنسانية".11

ومنه نستطيع القول بأنّ الصورة لبنة أساسية في بناء وتشكيل عناصر القصيدة، والتي تعد قناة الشاعر في تجربته الشعرية، فقد "أخذت الصورة في الشعر الحديث دورا رئيسا في بناء القصيدة حتى صارت إحدى أسس التركيب الشعري".12

ويرى عز الدين إسماعيل أن أساس بناء الصورة، يعود إلى الشعور الوجداني من خلال "إخضاع الطبيعة لحركة النفس وحاجاتها، وعندئذ يأخذ الشاعر كل الحق في تشكيل الطبيعة والتلاعب بمفرداتها،وبصورها الناجزة كذلك كيفما شاء".13

وغير بعيد عنصر الصورة نجد الموسيقى كمكون أساسي في بناء وتشكيل القصيدة فهي تعبر عن" " التشكيل الوزني المعروف بالبحور، ذلك التشكيل، الذي لا يُؤْبه فيه إلا لتساوي الوحدات العروضية، التي تتكون كل وحدة منها من نظام معين من الحركات والسكنات ، أما وقع هذه الحركات والسكنات فشيء لا يلتفت إليه، إنه تشكيل من نظام معين من الحركات والسكنات".14

10-محمد عبدو فلفل: في التشكيل اللغوي للشعر (مقاربات في النظرية والتطبيق)، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، 2013م. ص:13.

11- السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث (مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية)، دار المعرفة للنشر، د.ط، 2009م. ص09.

12- كاميليا عبد الفتاح: القصيدة العربية المعاصرة (دراسة تحليلية في البنية الفكرية والفنية)، دار المطبوعات الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 2007م. ص:482.

13- عزالدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، دار الفكر العربي، ط3 ،د.ت. ص:126 .

14- عز الدين: الشعر العربي المعاصر (قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية)، ص:53

ومن هنا، تكمن أهمية الموسيقى في الشعر من خلال دورها في "تفجير الطاقة الدلالية والإيحائية للغة، وقدرتها في الكشف عن طبيعة المشاعر والأحاسيس، التي تختلج في وجدان الشاعر ." .15 . ومنه، نستخلص أن أدوات التشكيل في القصيدة الشعرية، تتجسد في اللغة والصورة والإيقاع والمعاني، وجميعها تحقق الانسجام داخل القصيدة؛ لأن عملية التشكيل التي يقوم بها الشاعر صعبة ومعقدة؛ لأن كل هذه الأدوات لا تعد حشوا، وإنما ينفخ الشاعر فيها روحه وعاطفته وخياله وأسلوبه حتى تؤتي ثمارها للمتلقي وتزداد حيويتها، وبالتالي، تأثيرها.

استنادا إلى شبكة المعطيات المؤلفة للأنموذج الاصطلاحي للتشكيل في المجال الشعري فإننا سنحاول التعرف على عناصره الفنية في شعر العصرين المملوكي والعثماني، وهذه العناصر ترتبط في الأصل بحال الأدب فيهما، وتكشف عن جماليات ومميزات خاصة به.

3/ التشكيل في النص الشعري المملوكي

نظرة عامة حول العصر المملوك : يعد العصر المملوكي فترة مفصلية في التاريخ الإسلامي، فهو من أجل العصور، وقد تطور تطورا حضاريا وعلميا كبيرا ،فترة مفصلية في التاريخ الإسلامي، كيف لا، وقد كان العصر المملوكي عصر الموسوعات العلمية، واتصف علماؤه، ومصنفوه بالموسوعيين، فألفوا كتبا في الأدب والفقه والطب والتاريخ، فكثير الكتب والموسوعات ترجع لذلك العصر."16

بدأ العصر المملوكي حين تولت شجرة الدّر مقاليد الحكمفي القاهرة، بعد مقتل توران شاه ابن الصالح نجم الدين عام (648هـ-1250م) 17

قسم المؤرخون العصر المملوكي إلى مماليك بحرية، ومماليك برجية، فالمماليك البحرية 18 من (648 -784هـ) ومدتها 136سنة ، أما المماليك البرجية من(784-923هـ) ومدتها 138سنة.

15- طارق ثابت:النسق الشعري وبنياته (منطلقات التأسيس المعرفي والتوظيف المنهجي)، دار اليازوري العلمية، ط1 ، 2017،ص282.

16- رشا فخري النحال : فن الرسائل في العصر المملوكي (دراسة تحليلية)، قسم اللغة العربية،كلية الآداب، (مذكرة ماجستير)، الجامعةّ ، الإسلامية، غزة 2013 -2014م. ص:12.

17- ينظر: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، د.ط، د.ت. ج:06 ،ص: من 364 إلى 372.

ويرجع ظهور المماليك، واستخدامهم في العالم الإسلامي إلى عهد الخليفة العباسي المأمون ثم المعتصم، فقد كان يشتريهم من وسط آسيا 19 ، ثم تبعه كثير الخلفاء والأمراء لتقوية أنفسهم، فاستخدمهم الطولونيون ثم الإخشيديون والفاطميون واستكثر منهم الأيوبيون، خاصة بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي، بسبب كثرة الحروب بين خلفائه، الذين كان لابد لكل منهم أن يقوي نفسه بالإكثار منهم .20 .

وقد تحدثت الروايات التاريخية أن أماكن استيراد المماليك في العصر الأيوبي كان من " شبه جزيرة القرم القوقاز، وبلاد القفجاق ،التي تشمل حوض الفولجا، والأراضي الواقعة حول بحر قزوين، وآسيا الصغرى، وفارس، وتركستان ، وبلاد ما وراء النهر فكانوا خليطا من الأتراك والشراكسة ، والروم والروس. وأقلية أخرى من البلاد الأوروبية".

وكانت كل مجموعة من هؤلاء المماليك تنسب إلى صاحبها، الذي اشتراها من تجار الرقيق، وتولاها بالتربية، والتدريب لتعمل في خدمته، فالأسدية نسبة إلى أسد الدين شيركوه، والصلاحية إلى صلاح الدين الأيوبي، والعدلية نسبة إلى العادل أخ صلاح الدين، والصالحية نسبة إلى الصالح بن الكامل.

وينتهي العصر المملوكي عند أغلب المؤرخين بدخول السلطان العثماني سليم الأول القاهرة، عام (923هـ–1517 م)، وانتصاره على طومان باي في معركة الريدانية 21.

4/ الشعر في العصر المملوكي

لا يختلف اثنان في أن العصر المملوكي قد ظُلم أيما ظلم دلك أن العديد من الدارسين والباحثين قد أطلقوا حكمهم عنه بأنه عصر يتصف بالضعف والانحطاط، وأغفلوا ذكر فرسانه من علماء وأدباء وشعراء.

18- ينظر تفصيل هؤلاء المماليك في: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق وعمان، ط5 ،1421هـ 18 2000 –م. ج:07 ،ص: من 35 إلى 39.

19- ينظر: المصدر نفسه، ج:07 ،ص: (من 69 إلى 74) .

20- ينظر: نبيل خالد أبو علي: الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، دار المقداد للطباعة، د.ط، د.ت، 2007م.ج:01 ،ص :03 – 04.

21- ينظر: مفيد الزيدي: العصر المملوكي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن:عمان، د.ط، 2009م. ص:138

وبالرغم ما يقال عن "انصراف السلاطين، والأمراء عن منح الأعطيات والهدايا للشعراء، وأن الشعر لم يعد حرفة يرتزق منها الشعراء، فقد استمر نهر الشعر العربي دفاقا، وحافظ على مكانته في نفوس الخاصة والعامة، وكان التوجه الديني السائد في ذلك العصر باعثا من بواعثه، ورافدا من أهم روافد قوته، حيث وجد في ألفاظ القران الكريم، ومعانيه معينا لا ينضب، ووسمت الثقافة الإسلامية معانيه وألفاظه، وصوّره بالميسم الديني، كذلك وجد فيّ أعمال السلاطين والأمراء، وبطولاتهم في التصدي لأعداء الدين والأمة ما أعانه على الارتباط بالطبع الصادق أكثر من ارتباطه بالرّياء وبهرج الصنعة الزائفة.

وقد نظم الشعراء في شتى الأغراض الشعرية القديمة من غزل ومديح ورثاء وهجاء وفخر، ووصف ومجون، على أنه شاع في عصرهم النظم التعليمي كألفية ابن مالك والكافية الشافية و...الخ.

شهد العصر المملوكي حروبا عدة تركت آثارها العميقة على مختلف الأوضاع الحياتية: اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وأدبيا.

إن الشعراء هم ترجمان وجدان مجتمعهم، يؤثرون ويتأثرون، وتراهم يتفاعلون مع الأحداث، فالمتوقع أن يترك ي كل هذا صداه على جوانب من الشعر الاجتماعي في هذا العصر . فمن مثال هذا، تلك المعركة الحاسمة، التي أطاحت بأطماع التتار في "عين جالوت"، التي وقعت عامّ 658هـ، وارتفعت ا معنويات المسلمين بعد الهزائم، التي لحقت بهم، فجاءت قصائدها محملة بمشاعر الصدق ،والفرحة والإيمان، من ذلك قول بدر الدين بن المهمندار يصف جنود المسلمين، وكيف لحقت بجيوش التتار وشردهم 22:

لو عاينت عيناك يوم نزالنا والخيل تطفح في العَجَاجِ الأكدرِ
وقد اطلخمَّ الأمر واحتدمى الوغى وَوهىَ الجَبان وساء ظن المجترى
لرأيت سَدا من حديدٍ مائِرا فوق الفرات وفوق نارا ترى
طفرت وقد منَّع الفوارس مدّها تجري ولولا خيلنا لم تظفر
ورأيت سيلَ الخيل قد بلغ الزبى ومن الفوارسِ أبحراً من أبحرِ.

22- ينظر: رحمة مهدي الربمي: الأدب المملوكي والعثماني،كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة أم القرى، محاضرة للفصل الدراسي الثاني، 26 1438هـ-1439هـ. ص:9.

لقد صو ر الشاعر مراحل المعركة التي أطاحت بأطماع التتار في عين جالوت بدقة الفنان المبدع، فهذه الخيول "تضج وسط العجاج من شدة سرعتها، وتلهفها لملاقاة العدو، وقد اختلط الحابل بالنابل، ولم يعد يعرف العدو من المسلم، إلا بالوهي ،وخيبة الأمل، التي ظهرت على الأعداء، والخيل كأنها السيل ،والجيوش من الفوارس كأنها البحر، وبدؤوا في رشقهم بالسهامِ التي كحلت أعينهم، وأطاحت بهم، وأخذوا يولون هربا، ولكن المسلمين أخذوا بتعقبهم، وفي القصيدة صورة جميلة ودقيقة عندما أراد الشاعر تصوير سرعة خيل المسلمين في اللحاق بهم إلا أن الذي كان يعيق حركتها رؤوس الأعداء الملقاة."

والقصيدة لوحة شعرية متحركة نابضة بالحيوية، التي يحركها الضمير الجماعي.

وهناك ظاهرة لافتة للانتباه برزت عند شعراء العصر المملوكي؛ ألا وهي المعارضة، التي حظيت "باهتمام طائفة من شعراء العصر حتى صارت ظاهرة مميزة مع غيرها من الظواهر الشعرية، ففي هذا العصر كثرت معارضات شعرائه لبعض شعراء العصور الأولى كالجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، فهذا صفي الدين الحلي يعارض المتنبي، قائلا في مطلع قصيدته 23:

أسبلن من فوق النّهود ذوائبا فجعلن حَبّاتِ القُلوب ذوائبا

بيض دعاهن الغبيُّ كواعبا ولو استبان الرشد قال كواكب

وربائب24 فإذا رأيت نفارها من بسط أنسك خلتهن ربارب

أما المتنبي فيقول في مطلع قصيدته: 25

بأبي الشموسُ الجانِحاتِ غواربَا اللاّبساتُ من الحريرِ جلابيبا

أَلمْنْهِباتُ عُقُولناَ وقُلوبنا وجَناتهنّ النـاهباتِ النّاهبا

النّاعماتِ القاتلاتِ المحييات المبدياتُ من الدّلالِ غَرَائِباَ

23- المرجع نفسه، ص:09) .(بتصرف).

24- الربائب: الواحدة ربيبة: بنت الزوجة، امرأة الرجل إذاكان له ولد من غيرها، الربارب، الواحد ربرب: القطيع من بقر الوحش. 25

25- المتنبي: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، 1403هـ - 1983م. ص:109.

إنَّ التشكيل البلاغي واضح في أبيات صفي الدين الحلي، فواضح جدا إمعانه في البديع، عندما وظف الجناس بين "ذوائبا"، في الشطر الأول من البيت الأول، ومثلها "ذوائبا" في الشطر الثاني من البيت نفسه، فهو جناس لطيف، حيث قصد بالأولىَ شعر الجميلات، وبالثانية ذوبان القلب من شدة الخفقان عند رؤيته تلك الحسنوات.

كما عرف شعراء العصر المملوكي الوصف ، والتكلف، والمغالاة، والمديح ،فنظموا فيهم قصائدا طوالا. مستعينين على ذلك بضروب التشبيه، وبعض الاستعارات .

مما تقدم نستنتج، أن الشعر المملوكي لم يخرج عن الأسلوب البلاغي القديم القائم على ضروب التشبيه والاستعارات، الأمر الذي يؤكد استمرار النبض الفني المتجدد في جسم الشعر في هذا العصر، "وأن أرحام الإبداع لم تعقم، فلم تزل هناك أجنة للإبداع، والإضافة، ولا ينقصها غير الطبيب المقتدر، الذي وحده يستطيع تحقيق الولادة الطبيعية، ومواصلة الحياة.".

5/ التشكيل في النص الشعري العثماني

يرجع نسب العثمانيين إلى الأمير التركي عثمان بن أرطغرل زعيم الترك في بلاد الأناضول26، وهم جيل من الأجيال التركية المتشعبة من الجنس المغولي، استطاعوا تحويل إمارتهم الحدودية الصغيرة الواقعة في وادي"قره صو" في الأناضول إلى دولة عظيمة مهيبة الجانب، تتربع على عرش القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وتبسط نفوذ الإسلام على عديد دول آسيا، وتتمدد في عديد دول أوربا الصليبية، لتنشر الإسلام فيها .وتتواصل سيطرة الدولة العثمانية على الدول بطريقة متسارعة، فهاهي تستولي على الكثير من بلاد أرمينية الغربية، وما بين النهرين، وتبليس، وديار بكر، والرقة والموصل، ثم يأتي الدور لاستغلال الشام ومصر، "وكما بسط العثمانيون سيطرتهم على أراضي دولة المماليك في مصر والشام، وسطروا نهايتها، كذلك بسطوا نفوذهم على باقي البلدان العربية، ودول المغرب وليبيا وتونس والجزائر (...) ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، وإمارات الخليج العربي، وأخيرا اليمن سنة 976هـ". 27

26- هو عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه السلطان الأعظم أحد ملوك آل عثمان، للتعرف على شجرة العائلة العثمانية . ينظر: للأثرفي أعيان القرن الحادي عشر، المطبعة الوهبية، د.ط، 1284هـ. ج:01 ،ص:1

27- نبيل خالد أبو علي: الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، ج:01 ،ص:18

وقد أضحت هذه الدولة القوية، التي لا تغيب الشمس عن أراضيها رمزا لوحدة الأمة الإسلامية، وقوّتها، وحازت اسم خلافة، وأضحى السلطان العثماني خليفة للمسلمين .28.

وفي نهاية المطاف، أفلت شمس الدولة العثمانية، وباتت عاجزة عن التصدي للأخطار الخارجية، والمؤمرات الداخلية، وأُعلن رسميا نهاية العصر العثماني سنة 1351هـ- 1923م.29.

5/1: النص الشعري العثماني :

زالت في هذا العصر كثير الأسباب التي تنهض بالشعر، وتحمل أصحابه على الإجادة، فالملوك والسلاطين أعاجم لا يعنون إلا في النادر بتشجيع الشعراء، وتقريبهم إليهم، وإغداق الخير عليهم، فعمل هؤلاء على كسب معيشتهم عن طريق الحِرف، والصناعات، فكان بينهم الجزار والدهان و الكحّال .30.

أضف إلى الأسباب السابقة، فتور العصبية والحمية، "اللتان نهضتا قديما بالشعر الفخري والقومي، وقلّت دواعي اللّهو في جو الاضطراب السياسي، وصرامة العيش، إلا أن معين الشعر لم ينضب، وقرائح الشعراء لم تجف."

.وعلى كل حال، نستعرض أحوالا شعرية ميزت شعراء العصر العثماني، وبالتالي، سنقف على التشكلات الفنية المعبرة عن العصر عامة .

سنبدأ مع ابن نباتة المصري، الذي أُغرم "بالصناعة اللفظية حتى عّد أمير الأدباء فيها، فحفل شعره بأنواعها من تورية، وتشبيه، وتضمين، وحسن تعليل، وما إلى ذلك31."

28- المرجع نفسه، ج:01 ،ص:18(.بتصرف)

29-علي حسون: الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، وكتاب: حسن صبحي: التآمر الصهيوني ضد الأمة العربية .

30- ينظر: حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، دار اليوسف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: لبنان، د.ط، د.ت.ص:862.

31- جمال الدين بن نباتة المصري الفاروقي: الديوان، دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت. ص:28.

مني الشاعر بفقد ابن له مات صغيرا، فبكاه، ونظم في الرثاء قصائد تثير الأشجان، منها القصيدة الرائية، التي ابتدأها بقوله:

الله جارك إن دمعي جاري يا موحش الأوطان والأوتار

لمّا سكنت من التراب حديقة فاضت عليك العين بالأنهار

يقول حنا الفاخوري واصفا على الإجمال ديوان ابن نباتة المصري: " وقد وافق أحيانا إلى الإجادة (...) لكنّ اهتمامه بالزخرف اللفظي قاده إلى السخف، وتكرار المعاني، فكاد ديوانه لا يطلع علينا بمعنى مبتكر، ومن عيوب شعره،ما فيه من التّعابير السوقية أحيانا ، وما فيه من الإسفاف، واللجوء إلى الضرورات الشعرية، والحشو، والأخطاء اللغوية، وما إلى ذلك."32.

كما كثر الغزل في شعر ابن نباتة، ويكثر فيها من الصنعة التي تذهب برقة الغزل، وهو يظن أنّه يجدد فيه ومثال ذلك في قوله:

قام يرنو بمُقلةٍ كحـــلاء علمتني الجنون بالــسوداءِ

رشأ دبّ في سوالــفه النمـ ـل فهمت خواطر الشعراء

روض حُسن غنَّى لنا فوقه الحلـ ي فأهلاً بالروضة الغناء

جائر الحكم قلبه لي صــخر وبكائي له ــكاء الخنساء33.

بدأ الشاعر غزله بالحديث عن مقلة حبيبته الكحلاء التي علمته الجنون بالسوداء، وفي السوداء تورية بلون العين. كما هامت خواطره هنا وهو يوري بالنمل والشعراء وهما:(سورتين من القرآن الكريم).

ومن أحسن ما قال ابن نباتة في مدحه لسيد الخلق أجمعين نذكر هذه الأبيات34:

32- حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، دار اليوسف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: لبنان، د.ط، د.ت.ص:868.

33- محمود سالم محمد، ابن نباتة شاعر العصر المملوكي، دار ابن كثير،بيروت،لبنان، ط.1، 1999،ص51.

34- أبيات من قصيدة ابن نباتة المصري، اداعة لبنان، من المدائح النبوية،موقع: https://arabicradio.net/news/37961

صفيّ الله يا أزكى البرايا بحبك من عقائدنا الصّفاء

ومعتقنا المشّفع من جحيم ولا عجبٌ له منّا الولاء

عليك من المليك بكل وقت صلاةٌ في الجنان لها أداء

وأمداحٌ بألسنة الورى في مطالعها إرتقاءٌ وإنتقاء

النص الشعري عند اسماعيل الخشاب

له شعر حسن جُمع في ديوان سُمي بقسطنطينية سنة «ديوان الخشاب» طبع بمطبعة الجوائب 1882م، وأنه ولد في القاهرة ومات فيها عام 1815، أما الجبرتي فقد وصفه بأنه كاتب سلسلة التاريخ، والأديب الأريب الناظم الناثر والعمدة، أما شعره فإن كثيرا من الباحثين يرونه شعرا مصنوعا يجري على منوال شعراء عصره، ليس فيه تجديد ولم يجتهد في أن يستفيد من الحوادث المستجدة أو الثقافات الوافدة، أغلب شعره في مديح وجهاء عصره وكبرائه، ومن تعلم عليهم من الشيوخ، وقد كتب الموشحات فسار على منوال المغاربة الوشاحين، وكان يبدأ قصائده في المديح بالغزل والنسيب

المتأمل في شعر الخشاب، لابد وأن يتوقف كثيرا أمام شعره كعتبة للولوج للعصر الحديث، ذلك أن ثمة تأثيرا بينا له على شعراء النهضة الذين أتوا بعده، مثل إسماعيل صبري وولي الدين يكن وأحمد شوقي، ولعلنا نلاحظ تأثير شعر الخشاب في شوقي جليا في قصيدته التي يقول في مطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم،

حيث يرد هذا البيت: رَمى القَضاءُ بِعَينَي جُؤذَرٍ أَسَداً يا ساكِنَ القاعِ أَدرِك ساكِنَ الأَجَمِ

ونحن نجد هذا المعني عند الخشاب في البيت الأخير من مقطوعته القصيرة التي تتكون من ثلاثة أبيات:

ولعتَ بِسُودِ أجفانِ المِلاحِ وَهُنَّ أحَدُّ مِن بِيض الصِّفَاحِ

وَشَاقتكَ القُدُودُ أَلَستَ تَدري كُمُونَ الحَتف في لُدنِ الرِّماحِ

حَذَارِ ظِبَا الكِنَاسِ فَثَمَّ رِيمٌ يَصِيدُ لُيُوثَ آجامِ البِطاح.

فالذي لاشك فيه هنا أن هذه الفترة كانت زاخرة بالشعراء والناثرين والمبدعين، ومن هؤلاء نجد الشاعر إسماعيل بن سعد بن إسماعيل بن مذكور بن بكر بن عبد الله الوهبي المصري أبو الحسن، المعروف بالخشاب والذي يقول في إحدى قصائده35:

أدِر لي في الرُّبَا القَدَحا وكُن لِلعَذلِ مُطَّرِحا ونَبِّه صَاحِ سَاقِيها فَضَوءُ الصُّبح قَد وَضَحَا

وثَغرُ الزَّهرِ مُبتَسِمٌ وَشادي الوُرقِ قَد صَدَحا وخُذهَا من يدي رَشإٍ مَليح قد حوى مُلَحَا

غَزالٍ إن يَلُح للبد ر أَو غُصنِ النَّقا افتَضَحَا وأَطرِب مَسمَعَيكَ بما بهِ أُستاذُنا امتُدِحا

مُحَمَّدٌ الأَميرُ المرتجى كَم آمِلاً مَنَحَا إمامٌ إن تَزِنهُ بِكُ لِّ مَولىً مَاجِدٍ رَجَحَا

سِراحُ ذَكائه الوَهَّا جُ لَيلَ المشكَلاتِ مَحَا ذَا تُطرَى مَنَاقِبُهُ أخَالُ المِسكَ قَد نَفَحَا

فقد أثبتت هذه الأبيات قيمة شعر الخشَّاب حيث تأثر بمن قبله وهو ما أعطي شعره قيمة فنية عالية؛ ونلاحظ ذلك من خلال العلاقة التناصية بينه وبين أهم الشعراء القدامى —وهذه الميزة نفقدها عند معاصريه– وهو بهذا أنقذ نفسه من الوقوع في شرك التقليد الأعمي؛ وتجاوز العصر العثماني القريب إلى عصور الازدهار ولعل هذا التميز هو الذي رشح ديوانه للطبع في مطبعة الجوائب بتركيا؛ ومن أهم سمات شعره هو البعد عن الركاكة وضعف الصياغة وأن الخشاب كان على قدر كبير من الوعي بمتطلبات الشعر الجيد، كما أنه أثر فيمن بعده.

35– السمّاح عبد الله، مائتا عام عن رحيل اسماعيل الخشاب، الشاعر المصري المجهول، موقع الأهرام: https://gate.ahram.org.eg/daily/NewsPrint/353060.aspx، الخميس 2021/12/09م.

المحاضرة الثالثة عشرة :السجنيات في النّص الشعري القديم

نظرة عامة عن أدب السجون

من الملاحظ أ ّن شعر السجون لم ينل حظه من الاهتمام والدراسة إلا في العقود الأخيرة، حيث برزت دراسات تتناول أدب السجون في الوطن العربي قديما وحديثا، يمكن أن نذكر منها كتاب الأسر والسجن في شعر العرب (تاريخ ودراسة) لأحمد مختار البزرة، السجون وآثارها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي لواضح الصمد، كتاب تجربة السجن في الشعر الأندلسي لرشا عبد الله الخطيب، يقول أحمد مختار البزرة : « ليس ثمة كتاب للأقدمين في الأدب والشعر، مما انتهى إلينا خبره، أفرد للحديث عن شعر الأسر على إحاطتهم به، ودرايتهم الواسعة بوقائعه وظروفه، لكنهم فرقوه في ثنايا عديد المؤلفات الموسعة والموجزة، متصلا بالأخبار أو مضموما إلى المختارات أو مرفقا بذكر الأماكن والبلدان » ،1

فالدارس لهذه المؤلفات يرى أن السجون شيدت في العصر الجاهلي في إمارتي الغساسنة والمناذرة، وفي مدن مكة واليمن بل حتى في القبائل العربية، ولكنه كان أسرا مؤقتا، وهذا لطبيعة العرب القائمة على الرحلة والانتجاع، وقد قيل الشعر في السجون من العصر الجاهلي حتى يومنا هذا، من شعراء معروفين ومن آخرين مغمورين، ومن عبيد وأحرار، وفساق وأخيار ولصوص وصعاليك.

ومما سبق نتساءل عن ماهية أدب السجون ؟ وأهم قضاياه وأغراضه ؟ وأشهر أعلامه ؟ وأبرز خصائصه الفنية ؟

02/ مفهوم أدب السجون لا شك أننا لا نستطيع أن نتوصل إلى تعريف منضبط لأدب السجون، إلاّ إذا تمكنّا من بناء تصور واضح حول السجين أو الأسير في حد ذاته، يقول أحمد مختار البزرة أنه :

1- طارق زيناي، ظاهرة شعر السجون وتجلياتها في الأدب العربي القديم، مجلة القارئ للدراسات الأدبية واللغوية والنقدية، جامعة الوادي، الجزائر، جوان 2020، ص:253.

« إلا إذا آل أمر المرء إلى عدوه، فتمكن منه التمكن كله، ، وقدر على أن يتصرف بمصيره –كما يشاء– حياةً أو موتاً أو استرقاقا فقد أصبح أسيره وحبيسه » 2ولعل هذا التعريف له علاقة مباشرة بالأصل اللغوي لكلمة الأسر، « وهُو الحبس، وهة الإمساك، من ذلك الأسير،وكانوا يشدونه بالقدِّ وهو الإسارُ » 3، ولهذا صار من يشدُّ بالقيد ، بحيث يحد من حركته وحريته أسيرا عاجزا، مصيره بيد غيره، والأسير في اللغة يأتي مرادفا للسجين، في العصرين الجاهلي والإسلامي، إلا أنهما أصبحا في العصر العباسي يختلفان، في أن الأسير؛ أسير الحرب، والسجين أو الحبيس؛ هو الذي تعتقله السلطة لسبب ما، وقد جاء ذكر السجن في القرآن الكريم في أكثر من موضع من سورة يوسف في سياقات مختلفة.

يقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: « كتب على باب السجن: هذه منازل البلوى وقبور الأحياء وتجربة الصديق وشماتة الأعداء » ، و لعلّ هذه الجوانب المذكورة في النص السابق هي الأشد تعلقا بأدب السجون؛ إذ الشاعر فيه يعبر عن نفسه بما ناله السجن منه من تضييق وبؤس وتقييد وألم، وانقلاب صديق وشماتة عدو ، هذا بغض النظر عمّا يمكن أن يتعرض له السجين من عنف جسدي أو معنوي،وبعد هذه الإشارات الممهدة، نجد أن مفهوم أدب السجون، لا يكاد يخرج عن كونه ما قاله السجين في أسره حول قضية من القضايا أو موضوع من المواضيع، ذي الصلة المباشرة بمشاعره وأحاسيسه داخل الأسر، كالحديث عن الحنين والشكوى والعتاب والفخر والهجاء والإستعطاف والتأمل وإظهار الصبر، وغير ذلك.

03/مميزات أدب السجون أعلامه وموضوعاته

2/ المرجع نفسه، ص: 254.

3/ أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج01 ،تح : عبد السالم محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979 ،ص 107.

3/1: مميزاته:

يتميز شعر السجن بصدق العاطفة، ونقاء المعنى من دون زيف أو مجاملة، لأنه نابع من قلب مكلوم يعاني الأسر والوحدة والحرمان، ونفس تنشد الحرية والانعتاق» .وتزخر كتب الأوائل بمنظوم كثير فاض عن القرائح في السجون لو أفردت قصائده ومقطوعاته، وأخبار قائليه في كتاب لملأت غير سفر ضخم. وما ينشر من قديم مخطوطات الأدب والتراجم والتاريخ يزيد في هذه المادة يوما عن يوم.« وكم من شاعر كانت أشعاره التي كتبها خلال محنته بالسجن أكثر صدقا وعمقا خلدته باقي حياته أكثر من الأشعار التي كتبها وهو حر طليق، ذلك أن السجن «مس كثيرا من كبار الشعراء مسا رفيقا، وأوغل في حياة بعضهم إيغالا، وتعداهم إلى جمهور من أهل العلم والأدب»، فكانت محنتهم بالسجن باعثا قويا لإظهار ما كان خفيا في وجدانهم وتحريك ما كانوا يقاسونه في سجنهم. والسجين هو الإنسان الذي تسلب حريته، ويُلزم بالإقامة في مكان يسمى السجن، مع تعطيل حركته التي قد يلازمها القيد الذي إذا بلغ غاية الثقل سمي الكبل، ويقول قيس بن الحدادية، في هذا الصدد: دعوت عديا والكبول تكبني ألا يا عدي يا عدي بن نوفل اختلفت القيود، وتعددت أشكالها، وكانت الغاية منها الحد من حركة الأسير أو السجين حتى يؤمن جانبه، «ومهما اختلفت أشكال القيود وأنواعها يجمعها اسم الوثاق».

وأشار الجاحظ، في «البيان والتبيين»، إلى أن العرب كانت تشد لسان الأسير بنسعة إذا كان شاعرا خوفا من هجائه، مستشهدا بقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي: أقول وقد شدوا لساني بنسعة أمعشر تيم أطلقوا لساني.

3/2– أعلامه:

***–أبو فراس الحمداني:** وهو الحارث بن سعيد بن حمدان والذي عاد نسبه إلى قبيلة تغلب، ووُلد في مدينة الموصل في العراق في زمن الخلافة العباسية عام 320هـ وقيل 321هـ، وكان أبوه أميراً من أمراء بني حمدان، أما أمه فكانت روميةً يقال إنّها كانت سبيّة حرب، وقد قُتل أبوه وعمره ثلاث سنوات فعاش يتيماً وربته أمه بمساعدة ابن عمه سيف الدولة الحمداني الذي كان في تلك الفترة حاكماً على

بلاد الشام، فنشأ وترعرع في كنفه حيث أولاه عنايةً ورعايةً خاصةً، فشّب فارساً شجاعاً متمتعاً ببنيةٍ قويةٍ وقامةٍ طويلةٍ، وكانت تبدو عليه دلائل القوة، كما كان خلوقاً وذكياً، وكان دوماً يفتخر بنفسه وشجاعته ومقدرته على هزم أعدائه بالمعركة.4.

لم يكن أبو فراس يعتني بشعره فينقحه أو يجمعه، وكان يلقيه إلى أستاذه ابن خالويه ويطلب منه عدم نشره، فعمل ابن خالويه على جمعه، وكانت روايته هي الرواية الوحيدة التي أخذ عنها علماء العرب أمثال التنوخيّ، والثعالبيّ، والحصريّ وغيرهم، وقد انتشرت مخطوطات ديوانه في مكتبات العالم الكبرى في أوروبا وأفريقيا وآسيا، وكان علماء المستشرقين هم أول من حاول نشر ديوان أبي فراس معتمدين في ذلك على بعض النسخ الموجودة في مكتبات بلادهم، لكنّ محاولاتهم هذه باءت بالفشل، وظلت عبارة عن مخطوطات موجودة في بعض المكتبات العامة، ومن هؤلاء العلماء أهلورد، وكرومر، وتوربكة وغيرهم.

صدرت عدة طبعات لديوان أبي فراس لكنها كلها مليئة بالأخطاء، وظهرت أول طبعة من هذه الطبعات عام 1873م في بيروت، وحاول المستشرق (هاينريش توربكة) تنقيحها وشرحها لكنه لم يُتم ذلك فظلت محاولته مجرد مخطوطة، وفي عام 1900م ظهرت طبعة أخرى للديوان وطبعة في عام 1910م في بيروت وكانتا مثل سابقاتهما مليئتا بالأخطاء، وفي عام 1944م ظهرت طبعة محققة على يد سامي الدهان الذي اعتمد في تحقيقها وتدقيقها على عشرات المخطوطات والكتب الأدبية، فجاءت طبعة مميزة ونادرة لكنها تفتقر إلى شرح الأبيات والمفردات الصعبة، ثمّ ظهرت بعد ذلك العديد من الطبعات إلا أنّها جميعها لم ترقى إلى مستوى تلك الطبعة من حيث التحقق.

ما قاله أبي فراس في السجن: كثرت الغزوات المتبادلة بين الروم والحمدانيين في زمن أبي فراس الحمداني، فوقع في الأسر مرتين على إثر تلك الغزوات، فقد وقع أول مرة في الأسر سنة 959م) فاقتاده الروم إلى منطقة خرشنة وهي منطقة تقع على الفرات وكان فيها حصن منيع

4/ محمد مروان، أبو فراس الحمداني، موقع موضوع: https://mawdoo3.com، الأحد 2021/12/12، 21:00

ويقال إنّه تخلص من أسره عن طريق الفدية حيث افتداه سيف الدولة الحمداني، كما يقال إنّه استطاع الهرب، وذكر ابن خلكان: (أنه ركب جواداً وقفز من أعلى الحصن إلى الفرات، وهي شجاعة ما بعدها شجاعة).

أُسر أبو فراس مرة أخرى حين سقطت منبج في أيدي الروم سنة (350هـ-962 م) ونقل إلى القسطنطينية ومكث فيها طيلة فترة سجنه التي دامت أربع سنوات إلى أن استعاد سيف الدولة قوته وترتيب جيشه وشنّ هجوماً على الروم فانتصر عليهم، واستطاع تحرير حلب واستعادة ملكه من الروم وأسر بعضهم، وكان هذا سنة (354هـ- 966م)، حينها قام سيف الدولة بافتداء أسرى المسلمين ومن بينهم أبو فراس، وقد نظم أبو فراس أجمل قصائده الشعرية في فترة أسره وكان من أجملها قصيدته الرائية الشهيرة التي قال فيها:5.

أراكَ عَصيَّ الدَّمع شِمتُكَ الصَّبرُ أمَا للهوى نَهيٌ عليكَ ولا أمرُ

بَلى أنا مُشتاقٌ وعِنديَّ لوعَةٌ ولكنَّ مِثلي لا يُذاعُ لهُ سِرُّ

إذا الليلُ أضواني بَسطتُ يدَ الهوى وأذلَلتُ دَمعاً مِن خَلائقِهِ الكِبرُ
تَكادُ تُضيءُ النَّارُ بينَ جَوَانحي إذا هِي أذكَتها الصَّبَابَةُ والفِكرُ
مُعَلِّلتي بالوَصلِ والموتُ دُونَهُ إذا مَتُّ ظَمآناً فلا نَزَلَ القَطرُ
وَفَيتُ وفي بعضِ الوَفاءِ مَذَلَّةٌ لإنسانةٍ في الحَيِّ شِيمَتُها الغَدرُ
تُسائِلُني من أنتَ وهيَ عَليمةٌ وَهَل بِفَتىً مِثلي على حالِهِ نُكرُ ؟
فَقَالت لقد أزرَى بِكَ الدَّهرُ بَعدَنا فَقلتُ مَعَاذَ اللهِ بَل أنتِ لا الدَّهرُ.

5/ علي عيسى بوحقب، قصائد قيلت في السجون، موقع الشرق: الأحد 2021/12/12، 21:30
https://al-sharq.com/opinion/31/08/2013

ثم يتكلم بعد ذلك عن الأسر والسجن وكيف أن أصحابه في المعركة طلبوا منه الفرار بعد أن أصيب بسهم في فخذه، ولكنه آثر الأسر على عار الفرار من المعركة، فهو يصف لنا هذا الموقف قائلاً:

أسِرتُ وما صَحبي بِعُزلٍ لَدَى الوَغَى ولا فَرَسي مُهرٌ ولا رَبُّهُ غَمرُ

ولكن إذا حُمَّ القَضاءُ على امرئٍ فليسَ لهُ بَرٌّ يَقيهِ ولا بَحرُ

وقالَ أصيحابي الفِرارُ أو الرَّدَى فَقُلتُ هُما أمرانِ أحلاهُما مُرُّ

ولكنَّني أمضي لما لا يَعيبُني وَحَسبُكَ من أمرينِ خَيرُهما الأسرُ

يَقولونَ لي بِعتَ السَّلامةَ بالرَّدى فَقُلتُ أمَا واللهِ ما نَالني خُسرُ

وهَل يَتَجافى عَنّي الموتُ ساعَةً إذا ما تَجافى الأسرُ والضُّرُّ

هُوَ الموتُ فاختَر ما عَلا لَكَ ذِكرُهُ فَلَم يَمتِ الإنسانُ ما حَيِيَ الذِّكرُ

*– **المعتمد بن عباد:** *(431هـ - 488 هـ / 1040 - 1095م)* كان المعتمد حاكماً في قرطبة، جمع حوله الأدباء والشعراء والمثقفين، وعاش في عزة الملك، ورفاهية العيش، وبهجة الثقافة، وحام حوله الشعراء طمعاً في نواله، ورغبة في الاستئناس بمجلسه. وفي تلك الفترة، كان حكم الطوائف قائماً، وكان الصراع بين حكام الطوائف دائماً، وقد اكتوى ابن عباد بنار تلك النزاعات، وقد لجأ في آخر فترات حكمه إلى زعيم الموحدين ابن «ياشفين» غير أن الأمور لم تكن كما كان يريدها، فقد أخذ من عزه وسلطانه، وأودع في سجن «أغمات» في المغرب، ثم أخرج ليعيش من هبات المحسنين، وأثناء سجنه في «أغمات زاره بعض بناته في أحد الأعياد، فقال قصيدة رائعة تحكي واقعه: 6:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا وكان عيدك باللذات معمورا

وكنت تحسب أن العيد مسعدةٌ فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعةً في لبسهنّ رأيت الفقر مسطورا

6/ رابطة أدباء الشام، قصيدة المعتمد بن عباد في سجنه يوم العيد، HTTPS://WWW.ODABASHAM.NET

معاشهنّ بعيد العزّ ممتهنٌ يغزلن للناس لا يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعةً عيونهنّ فعاد القلب موتورا

قد أُغمضت بعد أن كانت مفتّرةً أبصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافيةً تشكو فراق حذاءٍ كان موفورا

قد لوّثت بيد الأقذاء اتسخت كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

لا خدّ إلا ويشكو الجدب ظاهره وقبل كان بماء الورد مغمورا

لكنه بسيول الحزن مُحترقٌ وليس إلا مع الأنفاس ممطورا

أفطرت في العيد لا عادت إساءتُه ولست يا عيدُ مني اليوم معذورا

وكنت تحسب أن الفطر مُبتَهَجٌ فعاد فطرك للأكباد تفطيرا

قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً لما أمرت وكان الفعلُ مبرورا

وكم حكمت على الأقوامِ في صلفٍ فردّك الدهر منهياً ومأمورا

من بات بعدك في ملكٍ يسرّ به أو بات يهنأ باللذات مسرورا

ولم تعظه عوادي الدهر إذ وقعت فإنما بات في الأحلام مغرورا

***– ابن زيدون:** هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أحمد بن غالب بن زيد المخزومي الشاعر الأندلسي المعروف، وُلدَ ابن زيدون سنة 1003م في قرطبة، وهو شاعر من الشعراء الأندلسيين الذين برعوا شعرًا ونثرًا، وهو أحد أشهر الشعراء في تاريخ الأدب الأندلسي، وعاش في جو الأندلس الرائق وطبيعته الساحرة، فنَمَتْ قريحتُه الشعرية وتطورت أدوات القصيدة عنده، فتناول أغراض الشعر كلِّها، واشتهرت قصة حبه لولادة بنت المستكفي، التي أبدع فيها أروع القصائد التي حُفرت في ذاكرة الأدب الأندلسي مدى الدهر، وتوفي ابن زيدون سنة 1071م، وهو على مشارف السبعين عامًا.

روائع من شعره:

لما انفرط عقد الوئام والمحبة والهيام بين ولادة وابن زيدون اتجهت ولادة إلى محب آخر، له مكانة سياسية واجتماعية كبيرة وهو أبو عامر بن عبدوس، فلما علم بذلك ابن زيدون أرسل قصيدة يهدد بها ويتوعد ابن عبدوس منها هذه الأبيات:7

أثرتَ هِزَبرَ الشَّرَى إذ رَبَض **ونَبَّهتهُ إذ هَدَا فاغتَمَض

ومازِلتَ تَبسطُ مُستَرسِلاً **إليهِ يَدَ البَغي لما انقَبَض

حَذَارِ حَذَارِ فإنَّ الكَريمَ **إذا سِيمَ خَسفاً أبَى وامتَعَض

فإنَّ سكُوتَ الشَّجاعِ النَّهو**سِ ليس بمَانِعِهِ أن يَعض

ولكن ابن عبدوس لم يلتفت لتهديد ابن زيدون له في بادئ الأمر، ولكن بعد استمرار ابن زيدون في تهديداته حبك له تهمة ورماه بأنه يتآمر على السلطان وأنه استولى على عقار لأحد مواليه بعد وفاته، فتم تحويل ابن زيدون للمحاكمة، ومن سوء حظ وطالع ابن زيدون أن القاضي هو ابن المكوى عبدالله بن أحمد والذي بينه وبين ابن زيدون موجدة وبغض قديم، فما كان منه إلا أن أمر بسجنه فوراً، وهكذا دخل الشاعر ابن زيدون غياهب السجن، فلما طال سجنه أرسل قصيدة يعتذر فيها للوزير ابن عبدوس قائلاً:

أإن زَعَمَ الواشُونَ ما ليسَ مَزعَماً ** تُعَزَّرُ في نَّصري وتُعذِرُ في خَذلي

وأصدَى إلى إسعافِكَ السَّائغِ الجَنَى **وأسعَى إلى إنصافِكَ السَّابغِ الظِّلِّ

ولو أنَّني واقعتُ عَمداً خَطيئةً **لما كانَ بِدعاً من سَجاياكَ أن تُملي

فَلَم استَتر حَربَ الفِجارِ ولم أطِع**مُسَيلَمةً إذ قالَ إنِّي مِنَ الرُّسلِ

ومِثلي قد تَهفُو بِهِ نَشوَةُ الصِّبا**ومثلُكَ قَد يَعفُو وما لَكَ مِنَ مِثلِ

وإنِّي لتَنهاني نُهَاي عَن التي**أشادَ بها الوَاشي ويَعقِلُني عَقلي

7/ علي عيسى بوحقب، قصائد قيلت في السجون، موقع الشرق: الأحد 2021/12/12، 21:30
https://al-sharq.com/opinion/31/08/2013

أأنكُثُ فيكَ المدحَ من بَعدِ قُوَّةٍ**ولا أقتَدي إلا بِناقِضَةِ الغَزلِ

وما كُنتُ بالمهدِي إلى السُّؤدَدِ الخَنَا***ولا بالمسيء القَولِ في الحسَنِ الفِعلِ

ومالي لا أثني بآلاءِ مُنعِمٍ**إذا الرَّوضُ أثنى بالنَّسيمِ على الطَّلِّ

هِي النَّعلُ زَلَّت بي فَهل أنتَ مكذبٌ**لِقيلِ الأعادي إنَّها زَلَّةُ الحِسلِ ؟

وهل لَكَ في أن تَشفَعَ الطَّولَ شَافِعاً**فَتُنجحَ مَيمونَ النَّقيبةِ أو تُثلي

ألا إنَّ ظَنّي بينَ فَعِلَيكَ واقِفٌ**وقُوفَ الهوَى بينَ القَطيعةِ والوَصلِ

ولكن ابن عبدوس لم يستجب لرجوى ابن زيدون وتركه في السجن حتى قرر الهروب منه وكان له ذلك، وظل ابن زيدون يراسل ويوسط الوجهاء حتى عفا عنه ابن عبدوس بعد ذلك .

المحاضرة الرابعة عشرة : الشعر النسائي القديم

أولا: مفهوم الشعر النسائي.

شعر المرأة كان ومازال يثير إشكاليات عديدة، أولها كون المؤلف مرتبطا بتاء التأنيث التي تبدو أمام القراء العاديين علامة إبتكرتها اللغة للتفريق بين جنس وآخر. لكن الناقد والدارس لا تفوتهما فرصة التساؤل والتعجب من سرِّ هذه التاء وما يُخفيه النص برموزه وصوره ومقاصده ولعل ما يثير فضول البعض في التطلع إلى معرفة ما كانت المرأة حقا قادرة على أن تكون شاعرة (فحلة)، تدرج ضمن طبقات فحول الشعراء هو أساس منطلقات الدارسين للأدب النسوي عامو والشعر بخاصة، وقد سادت فكرة بين كثير من متتبعي الحركة الأدبية مُؤداها أن الأدب لم ينجب شاعرة تُضاهي أبا الطيب المتنبي عند العرب، أو لويس اراغون عند الغرب، أو هوميروس عند اليونان وإنّ تاريخ الأدب لم يخلد شاعرة كتبت في ملحمة واستطاعت أن تصور تاريخ الشعوب، وتؤسس لبناء حضارة فكرية وكأن الشعر بمعياره البطولي لا تقدر عليه المرأة وإن مارسته كان لزاماً عليها أن تدرك أنها غير بالغة التفقه فيه، مثلها هي غير قادرة على أن تكون قاضيا عادلا لظروفٍ تكوينية هي منها بريئة، وفي المقابل يخطئ من ينفي على المرأة أن تكون شاعرة.[1]

وإنما إنصافا وجب أن ينظر إلى الشعر النسوي على أنه إبداع لا يختلف عن إبداع الرجل أو الشعر المذكر، والأساس في الحكم له أو عليه إنّما للإعتبارات فنية وفكرية لا تخرج عن إطارة الجودة وحسن التبليغ ويبقى الحكم للقلة أو الكثرة جائزاً، إذ معروف لدى مؤرخي تاريخ الأدب قلة الشاعرات إذا ما قيس بعدد الشعراء في كل عصر.[2]

وكان جلال الدين السيوطي في كتابه (نزهة الجلساء في أشعار النساء) أحصى أرعين شاعرة معظمهن من الأندلسيات كما أصى رضا الدين في (طرائف النساء) مائتين وإثنتي عشرة شاعرة من الشاعرات العربيات المغمورات، وإن كان لم يعتمد على ذكر العصور واكتفى بسرد النصوص في الشعرية.

---

[1]- سعاد سعيد، أورادي أمينة، دورة الرجل في الشعر النسوي الجزائري (زهرة بالعليا/انموذجا)، مذكرة ليسانس،2012/2011، ص

[2]- ناصر معماشي، النص الشعري النسوي العربي في الجزائر، دراسة في بنية الخطاب، 2003، ط.د، ص167.

وبما يكون رفض الخنساء قديما لحكم النابغة الذبياني حينما جعلها أشعر النساء جميعا بعد استحسان شعرها على شعر حسان ابن ثابت فأضافت أنما أشعر النساء والرجال، موقفاً يسند إلى مقياس أن الشعر لا تضبطه أنوثة أو رجولة بل أمورٌ أخرى على القراء إدراك مسامات جودتها يتبع مواطن الجمال في كل نص.[1]

وإن كان الشعر النسوي قد إرتبطإنطلاقا من الخنساء بأغراض محددة أولها الرثاء الذي نبغت فيه الشاعرة العربية، حتى وإن أسقط الدارسون ذلك على تكوينها (الخاص) من حيث هي كائن أنثوي سريع الثوران في المواقف المحزنة، إلا أنّ ذلك لا يمنع من أن تكون هذه الشاعرة النابغة في الرثا سريعة الإنفعال في المواقف المفرحة وغيرها، وهو ما ..... أغراض أخرى نبغت فيها الشاعرة العربية سنتطرق إليها لاحقا إلا أن معظم الدّارسين يرون .....الشاعرة في غرضين شعريين هما الرثاء والغزل، وقد نرجح محدودية خضوهن في مجالات أخرى إلى طبيعة التركيبة الإجتماعية التي نشأت فيها المرأة، وإلى نظرة الناس إلى الحياة وليس إلى تركيبة المرأة وتكوينها الأنثوي كما قد يعتقد.[2]

ثانيا :أغراض الشعر النسائي القديم.

يتناول الشعر النسائي في العصر الجاهلي والإسلامي أغراض الشعر المعروفة في تلك الفترة كالمدح والرثاء والهجاء والحكمة وإثارة الحماس وغيرها من الأغراض. غير أن أهم الأغراض الشعرية التي نظمت فيها المرأة الجاهلية هو الرثاء وذلك لأن ندب الميت والتفجع عليه كان من مهماتها وكانت الخنساء أرثى شواعر العرب وأغزرهن شعراً وديوانها يكاد يقتصر على الرثاء.

ومن عيون شعرها في رثاء أخيها (صخر):

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذْكُر لكل غروب شمس

فلولا كثرة البــاكين حولــي على إخوانهم لقتلت نفسي

وفي هذه المرحلة ظهرت شاعرة أخرى هي ليلى الأخيلية، عاصرت عثمان ومدحت معاوية وحاول الحجاج بن يوسف التقفي أن يقطع لسانها وفي موقع آخر أكرمها وحظرت العديد من مجالس

[1]– سعاد سعيد، أورادي أمينة، دورة الرجل في الشعر النسوي الجزائري (زهرة بالعليا/انموذجا)، ص19.

[2]– سعد بو فلاقة، الشعر النسوي الأندلسي (..... وخصائصه الفنية)، ديوان المطبوعات، الجزائر، 1997، ص83.

الخلفاء وعلية القوم وهي تخلف عن الخنساء بأهاجيها التي أثارت معارك حامية بينها وبين شعراء مرحلتها وفي المقدمة منهم النابغة الجعدي خصمها.

ولكن الأخيلية تحولت إلى الهجاء اضطراراً أو استكمالا لملمح قوتها ولها أشعار في الرثاء صاحبها (توبة بن حمير) وكانت متزوجة في تلك الفترة. وتميز رثاءها خلو الكثير من شعرها من الطقس المأساوي الذي وسم شعر الخنساء، كما أنها مدحت الحجاج فقالت في مدح الحجاج:

أحجاج لا يقلل سلاحك إنما المنايا بكف الله حيث تراها

إن هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائما فسقاها

وفي العصر العباسي عن موقع المرأة الإجتماعي، ينقسم شعرها إلى شطرين الشعر الذي تقوله .....والجارية وأكثره في الحب ووصف الطبيعة بعضه يقرب من التهتك والآخر شعر التصوفي والزهد، يصادفنا شعر صوفي لـ (رابعة العدوية) التي عاشت القرن الثاني للهجرة ومن شعرها قولها تتغزل في الذات الإلهية:

حبيب ليـــس بعدلـــه حبيـــب وما لسواه في قلبي نصيب

حبيب غاب عن بصري وشخصي ولكن عن فؤادي ما يغيب.[1]

أما الشاعرات الأندلس فأهم الأغراض التي نظمن فيها هي: الغزل والمدح والهجاء، ووصف الطبيعة، والشكوى، والإستعطاف، لعل أبز أغراض الشعر النسائي في الأندلس هو الغزل ومرد ذلك إلى شيوع الترف وللهو والطرب في المجتمع الاندلسي.

ينقسم الشعر الغزلي إلى إتجاهين: إتجاه العفاف والترفع وإتجاه المجون والشهوة ومن الشاعرات اللاتي يمثلن الإتجاه الأول هي (الغائبة البجانية) تقول:

أتجزع إن قالوا سترحـــل اظعَـــان وكيف تطيف الصبر ويحك أن بانوا

وما هو إلا الموت عن رحيلهـــم وإلا فيعيش ..... منـــه أحـــزان

عهد فهم والعيش في ظل وصلهم انيق وروض الدهر أزهـــر ريـــان[2]

[1]- محمد ممحتن، شمسي واقف زاداه، الأدب النسائي مصطلح يتأرجح بين مؤيد ومعارض، د.ط، 1389هـ، ص138-139.

[2]- نفس المرجع.

ثالثا: خصائص الشعر النسائي القديم والشعر النسائي في النقد العربي.

أولا: خصائص الشعر النسائي القديم.

نجد أن شعر المرأة قبل الإسلام يتميز من الناحية الموضوعية بتعدد الأغراض بغالبية غرض الرثاء ويرجع السبب إلى عاطفتها وصدق مشاعرها فقد كانت موازية لشعر الرجل في هذا المحور، أما من الناحية الفنية فنجد قوة الألفاظ كما نراها في شعر الرجال، ولا سيما في التناص ذاته المثل الذي اتكأت عليه الشاعرة الجاهلية وأما أن يمون تناص مرجعية الأسطورية والتاريخية والخرافية وبناء يرفع بالنص الشعري النسوي إلى السير في هدي المعجم اللغوي، وتشكيل إتساق لغوي بنائي تضع الشاعرة على مستوى معجميا واحداً مع الشاعر والمميز في هذا الشعر أن في ذلك العصر لم تكن فيه الكتابة ولا القراءة ولا مناهج يدرس على أساسه الشعر، أما ما تميزت بع الشاعرة عن الرجل الشاعر هو صدق العاطفة، وعدم تكسب المرأة بالشعر كما يفعل الرجل، لكن شعر الرجل قبلة الإسلام كان لا يخلو من المقدمات الطللية، ووصف الحيوان والمرأة ومشقته في الصحراء ورحلة الناقة وهذا ما نجده مفقود في شعر المرأة قبل الإسلام.

ونجد بوضوح قوة شخصية المرأة وصلابتها، كانت لها مكانة عظيمة ودور فعال في المجتمع تجلى بضرورة ذكر المرأة بمدحها في القصيدة الجاهلية وتأثر القبيلة بتحريض نسائهم بالشعر على أخذ الثأر وبدورها في مدحها ورثاءها لموتاها وبالفخر بقبيلتها، فكانت تتميز بالوقار والحكمة والفطنة على الرغم من وجود دراسات قد نادت بظلم المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام لكن هذا لم يكن واضح في النصوص التي وصلت إلينا، ويجدر القول بأن شعرها قد أهمل من قبل أغلب النقاد والمؤلفين والجامعين في العصور التي تلت هذا العصر.[1]

ثانيا: الشعر النسائي القديم في النقد العربي.

[1]- ينظر: المجلة الإلكترونية الشاملة متعددة المعرفة للنشر الأبحاث العلمية ..... (MECS) العدد الرابع والعشرون، لبنان، 2020.

اختلفت الآراء والأحكام النقدية التي قبلت حول الخطاب الأنثوي لدى المرأة الشاعرة ما بين معترف بشاعريتها أو متحفظ لكن المتفق عليه من طرف أغلب الشعراء والرواة والنقاد أن الشعر مقترن بالفحولة والتباهي محصورة عند الرجال دون المرأة وهذه النظرة نجدها عند أبو النجم العجلي في قوله:

أني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر.[1]

يفتخر هنا بفحولته كقياس للشاعرية، وهذا الحكم نلمسه في قول بشار بن برد: "لم تقل امرأة شعرا قط إلا وتبين ضعف فيه قيل له: أوكذلك الخنساء قال: تلك فوق الرجال"[2] يعتبر هذا القول متعسفا في حق كل إمرأة شاعرة لّأنه معمم باستثناء الخنساء في حين أنه غفل الكثير من الشواعر اللواتي كان لهن صيت الابداع منهن: الذرنق بنت بدر، زرقاء اليمامة، أم سلمة، منى المسمدانية زغيرهن، ومن الآراء التي نلمس لدى منتقدي شعر المرأة قولهم بأن الغرض المسموح لها بالخوض فيه هو غرض الرثاء لأنه الأقرب لدى طبيعتهن على أنه نوع من البكاء الأقرب إلى عاطفتها يرى ابن الرشيق أن النساء: "أشحن الناس قلوبا عند المصيبة وأشدهم جزعا على الهالك؛ لماركب الله عز وجل في طبيعتهن من الخور وضعف العزيمة".[3]أي أن ما يناسبها الرثاء هذا ما نلمسه في رد النابغة ..... على الشاعرة ليلى الأخيلية الأموية جينما قالت شعرا هجائيا قائلا:

ألا حيّيا ليلى وقولا لها هلا فقد ركبت أغرُّ مدجَّلا.[4]

فالنابغة يعارض شعر ليلى الأخلية لأنها خاضت غرضا أكبر منها الذي لا يغامر فيه إلا الرجال، هكذا كانت آراء النقاد حول شعر المرأة وهي آراء توجب بالرفض وعدم القبول.

وفي المقابل نجد آراء أخرى أكثر إيجابية أظهرت موقفها من شعر المرأة العربية عبر فيها النقاد عن مدى استحسانهم وتقبلهم لهذا الشعر كما فعل ابن الأثير مع شعر جليلة بنت مرة قائلا في شأن شعرها: "وهذه الأبيات لو نطق بها فحول المعدودون من الشعراء لاستعظمت فكيف امرأة وهي

---

[1]- أبو النجم العجمي، ديوان فن، تح: حمد أديب عبد الواحد، مطبوعات جمع اللغة العربية، دمشق، د.ط، 2005، ص161-162.

[2]- أبو العلاء المصري، ..... سقط تح: مصطفى الصفاو وآخرون الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، د.ط، 1986، ص25 14

[3]- ابن الرشيق القيرواني، العمدة في نقد الشعر، كفيف نايف، دار ..... بيروت، د.ط، 2003، ص432.

[4]- للزياني أشعار النساء، تح: سامي المكي وهلال ناجي، عالم الكتب، د.ط، ص26-27.

حزينة في شرح تلك الحال المشار إليها"[1] أنصف ابن الأثير الشاعرة باعترافه الصريح لموهبتها الإبداعية على التعبير في أثل المواقف قسوة وصعوبة وكذلك الحال مع الشاعر حسان بن ثابت حينما أجازته ابته في شعرها لقوله:

وقافية مثل لسان ردفها تناولت من جو السماء نزولها[2]

فالشاعر الأدب معجب بشاعرية ابنته وعبقريتها واصفا إياها بالمعجزة نزلت من السماء تستحق الفخر والاعتزاز.

ونماذج أخرى منها رثاء الخنساء إذ تقول :

أعينيَّ جودا ولا تجمدا **ألا تبكيان لصخر الندى؟

ألا تبكيان الجواد الجميل؟ ألا تبكيان الفتى السيدا؟

طويل النجاد رفيع العما ***د ساد عشيرته أمردا

إذا القوم مدوا أياديهم***إلى المجد مد إليه يدا

فنال الذي فوق أيديهمُ ***من المجد ثم مضى مصعدا

يحمله القوم ما عالهم*** وإن كان أصغرهم مولدا

وإن ذكر المجد ألفيته ***تأزر بالمجد ثم ارتدى

[1]– ابن الأثير: المثل السائر في الأدب الكتب والشاعرة، تح: أحمد الحوفي، ج2، دار الرفاعي، ط3، 1403هـ، ص20.

[2]– ابن الرشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح: عبد الحميد محمد محي الدين، دار.....، د.ط، 1951م، ص279.